مفاتح ذكر الله

وطمأنينة النفس

ألا بذكر الله تطمئن القلوب

تأليف
د. خالد بن عبد الكريم اللاحم

طبعة رجب ١٤٤٣هـ



مفاتح ذكر الله وطمأنينة النفس



ح خالد عبد الكريم محمد اللاحم ، ١٤٤٣ ه

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم ، خالد عبدالكريم محمد

مفاتح ذكر لله وطمأنينة النفس / .خالد عبدالكريم محمد اللاحم-

ط ١ -. .الرياض ، ١٤٤٣ هـ

٣١ ص ؛١٧×٢٤سم

ردمك: ٠-٥٩٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

١ -الادعية و الاذكار ٢ -الطمأنينة أ.العنوان

ديوي ٢١٢,٩٣ ١٤٤٣/٧٩٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالَاهُ، وَبَعْدُ؛ فَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ هُوَ الْحَيَاةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**».

فَلَا حَيَاةَ إِلَّا بِعِلْمٍ؛ بِذِكْرٍ، وَلَا عِلْمَ إِلَّا بِقِرَاءَةٍ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُمْكِنُ تَحْصِيلُ الْعِلْمِ بِلَا قِرَاءَةٍ مستمرة فَهُوَ كَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الشِّبَعَ يَكُونُ دُونَ طَعَامٍ، وَالرِّيَّ دُونَ مَاءٍ.

فَمَنْ أَرَادَ الْحَيَاةَ فَعَلَيْهِ بِدَوَامِ الْقِرَاءَةِ، وَأَنْ تَكُونَ بِقَلْبٍ.

وَمَنْ رَأَى أَنَّ فِي ذَلِكَ مَشَقَّةً وَتَعَبًا، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَشَقَّةٍ وَتَعَبٍ بِسَبَبِ نِسْيَانِ ذِكْرِ اللهِ وَضَحَالَةِ الْعِلْمِ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ، وَلْيَتَذَكَّرْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، يَعْنِي أَنَّ اللهَ يُحِبُّ مَنْ يُسَبِّحُ لَهُ، وَمَنْ يُكْثِرُ التَّسْبِيحَ، وَهَذَا عَمَلُ قَلْبٍ وَلِسَانٍ لَا يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَدْبِيرِ أُمُورِ حَيَاتِهِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْهَجُ بِذِكْرِ اللهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَقَدْ فَصَّلَتْ كُتُبُ السُّنَّةِ هَدْيَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دَوَامِ ذِكْرِ رَبِّهِ تَفْصِيلاً.

مسائل بين يدي الكتاب

المسألة (١): معنى ذكر الله

ذِكْرُ اللهِ هُوَ أَنْ يَعْتَقِدَ الْقَلْبُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا

بِاللهِ، وَأَنْ يُسْلِمَ أَمْرَهُ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، يَخَافُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَنْ يَزِيغَ قَلْبُهُ، وَأَنْ يَزُولَ عِلْمُهُ، وَأَنْ يَنْقَلِبَ اعْتِقَادُهُ، وَأَنْ تَهِنَ قُوَّتُهُ، وَأَنْ يَفْقِدَ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ وَتَوْفِيقَهُ وَتَسْدِيدَهُ وَحِفْظَهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصْبَحَ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ ضَعِيفٌ مَهْزُومٌ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ.

وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ تَقْرِيرٌ لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ؛ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ**﴾، ﴿**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ**﴾، ﴿**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ**﴾، ﴿**أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾، ﴿**أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ**﴾، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدّاً.

ذِكْرُ اللهِ مَعْنَاهُ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مَا اهْتَدَى إِلَّا بِحَمْدِ اللهِ، وَلَا شُفِيَ إِلَّا بِحَمْدِ اللهِ، وَلَا صَلَّى إِلَّا بِحَمْدِ اللهِ، وَلَا مَشَى أَوْ قَامَ أَوِ انْتَصَرَ أَوْ أَكَلَ أَوْ شَرِبَ إِلَّا بِحَمْدِ اللهِ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَبَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ.

هَذَا ذِكْرُ اللهِ الَّذِي يَجِبُ دَوَامُهُ مَعَ الْأَنْفَاسِ، وَفِي أَيِّ لَحْظَةٍ يَحْصُلُ نِسْيَانُهُ أَوِ الْغَفْلَةُ عَنْهُ فَإِنَّ الْعَبْدَ مُعَرَّضٌ لِسَخَطِ اللهِ وَعِقَابِهِ، وَأَوَّلُهُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ.

وَمِمَّا يُنَافِي ذِكْرَ اللهِ الْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ.

وَمِمَّا يُنَافِي ذِكْرَ اللهِ الْجَزْمُ بِأَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ أَوْ رَضِيَ فِعْلَهُ وَقَوْلَهُ، وَالْجَزْمُ بِأَنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ الْمَكَانَةَ وَالْمَنْزِلَةَ، وَأَيْضاً مِمَّا يُنَافِي ذِكْرَ اللهِ الْجَزْمُ بِأَنَّ اللهَ قَدْ سَخِطَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَقَبَّلُ مِنْهُ وَلَا يَتُوبُ عَلَيْهِ.

وَذِكْرُ اللهِ عِلْمٌ وَعَمَلٌ، الْعِلْمُ الْقُرْآنُ، وَالْعَمَلُ الدُّعَاءُ، وَالدُّعَاءُ نِصْفَانِ: تَعْظِيمٌ وَتَذَلُّلٌ، وَالتَّذَلُّلُ يَكُونُ: بِوَصْفِ الْحَالِ، وَبِالسُّؤَالِ، وَبِالْأَفْعَالِ، وَالتَّذَلُّلُ نِصْفَانِ: خَوْفٌ وَرَجَاءٌ.

لَا بُدَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ لِيَكُونَ الذِّكْرُ صَحِيحاً تَامّاً، أَمَّا إِنْ نَقَصَ أَحَدُ هَذِهِ الْأُمُورِ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَخْتَلُّ وَقَدْ لَا يُحَقِّقُ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَصِحَّتَهُ، وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا النَّقْصُ نَاشِئاً عَنْ خَلَلٍ فِي الِاعْتِقَادِ وَالْفِقْهِ وَالْفَهْمِ فَيَجِبُ تَصْحِيحُهُ.

ذِكْرُ اللهِ هُوَ حُضُورُ وَشُهُودُ الْقَلْبِ حِينَ الْقِرَاءَةِ أَوِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، وَوُجُودُ أَيِّ سَهْوٍ أَوْ وَسَاوِسَ أَوْ هَوَاجِسَ حِينَ الْقِرَاءَةِ أَوِ الصَّلَاةِ يُعْتَبَرُ سَهْواً عَنْ ذِكْرِ اللهِ.

انْتِبَاهُ الْقَلْبِ يَتَفَاوَتُ بِحَسْبِ حَالِ الْقَلْبِ قُوَّةً وَضَعْفاً، صِحَّةً وَمَرَضاً، رَغْبَةً وَرَهْبَةً، حُبّاً وَكُرْهاً.

وَيَتَفَاوَتُ أَيْضاً بِحَسْبِ مَا يَقُومُ بِهِ الشَّخْصُ مِنْ جُهْدٍ لِتَحْقِيقِ الِانْتِبَاهِ وَالتَّرْكِيزِ.

ذِكْرُ اللهِ فَيْضٌ وَعَطَاءٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ، فَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

المسألة (٢): ذكر الله في القرآن

وَرَدَ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِأَلْفَاظٍ؛ مِنْهَا:

١- الْعِلْمُ.

٢- الْعَقْلُ.

٣- التَّدَبُّرُ.

٤- التَّفَكُّرُ.

٥- النَّظَرُ.

٦- الْإِنْصَاتُ.

٧- الْمُوَاطَأَةُ.

٨- السَّمْعُ.

٩- الشُّهُودُ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَاظٌ تَضَمَّنَتْ مَعْنَى ذِكْرِ اللهِ، وَفِيهَا الدَّعْوَةُ أَوِ الْأَمْرُ بِأَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ مُقْبِلاً عَلَى اللهِ تَعَالَى حِينَ الصَّلَاةِ أَوِ الْقِرَاءَةِ، وَفِي كُلِّ أُمُورِ الْحَيَاةِ.

المسألة (٣): كلام القلب

الْإِنْسَانُ إِمَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِقَلْبِهِ فَقَطْ، وَإِمَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ مَعـًا، وَإِمَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ لِسَانُهُ بِكَلَامٍ وَقَلْبُهُ بِكَلَامٍ آخَرَ، فَيُوجَدُ كَلَامَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَمِنَ النَّوْعِ الْأَخِيرِ النِّفَاقُ؛ حِينَ يَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ بِالْإِسْلَامِ، وَالْقَلْبُ يَتَكَلَّمُ بِضِدِّهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾، أَوِ الْعَكْسِ فِي حَالِ الْمُكْرَهِ عَلَى الْكُفْرِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ**﴾.

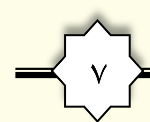
يُوجَدُ فِي الْقَلْبِ ثَلَاثَةُ مَصَادِرَ لِلْكَلَامِ:

الْأَوَّلُ: حَدِيثُ النَّفْسِ.

الثَّانِي: إِلْهَامُ الْمَلَكِ.

الثَّالِثُ: وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ.

فَمَا يُوجَدُ مِنْ كَلَامٍ فِي الْقَلْبِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ ابْتِدَاءً مِنَ النَّفْسِ وَلَيْسَ مِنْ مَصْدَرٍ خَارِجِيٍّ، أَوْ يَكُونَ أَصْلُهُ مِنَ الْمَلَكِ، ثُمَّ النَّفْسُ تَقْبَلُهُ وَتُسَلِّمُ لَهُ، أَوْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ يُلْقِيهِ وَيُمْلِيهِ، ثُمَّ النَّفْسُ تَرْوِيهِ وَتَحْكِيهِ، دَلَّ عَلَى هَذَا نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.



المسألة (٤): الشيطان يصدكم عن ذكر الله

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾، وَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً**﴾.

إِنَّ مَعْرَكَةَ الْإِنْسَانِ مَعَ الشَّيْطَانِ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ، وَسِلَاحُ الْمَعْرَكَةِ لِلطَّرَفَيْنِ هُوَ الْكَلَامُ، فَحِينَ يَقُومُ الْإِنْسَانُ بِكَلَامٍ يَقُومُ الشَّيْطَانُ بِكَلَامٍ آخَرَ مُعَاكِسٍ لِمَا يُرِيدُ الْإِنْسَانُ ذِكْرَهُ وَقِرَاءَتَهُ.

يُحَاوِلُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذِكْرِ اللهِ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ مَتَى ذَكَرْتَ اللهَ سَتُبْصِرُ وَسَتَرَى النُّورَ وَيَتَّضِحُ لَكَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، فَتُحَقِّقُ النَّجَاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

إِنَّ ذِكْرَ اللهِ يَعْنِي مَنْعَ أَيِّ وَسَاوِسَ أَوْ أَفْكَارٍ أَوْ خَوَاطِرَ أُخْرَى غَيْرَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ اللِّسَانُ أَوْ تَقْرَؤُهُ الْعَيْنُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهَدَةٍ، وَيَحْتَاجُ إِلَى يَقَظَةٍ وَانْتِبَاهٍ مُسْتَمِرٍّ، وَأَيُّ غَفْلَةٍ أَوْ سَهْوٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ الْقَلْبَ وَيَقُومُ بِفَكِّهِ عَنِ اللِّسَانِ أَوِ الْعَيْنِ، وَإِشْغَالِهِ بِكَلَامٍ آخَرَ.

إِنَّ مُقَاوَمَةَ مِثْلِ هَذِهِ الْخَوَاطِرِ الدَّخِيلَةِ الْمُتَطَفِّلَةِ أَثْنَاءَ الذِّكْرِ أَوِ الْقِرَاءَةِ هُوَ جِهَادُ الشَّيْطَانِ وَاتِّخَاذُهُ عَدُوّاً، فَعَدَاوَتُهُ تَتَمَثَّلُ فِي هَذِهِ الْوَسَاوِسِ الَّتِي يُلْقِيهَا عَلَى مَدَارِ الثَّانِيَةِ، لَا يَفْتُرُ وَلَا يَمَلُّ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ حِيَلٌ وَطُرُقٌ وَأَسَالِيبُ.

الشَّيْطَانُ مُطَّلِعٌ عَلَى جَمِيعِ تَسْجِيلَاتِ قَلْبِكَ وَمَخْزُونِ بَيَانَاتِهِ، يُذَكِّرُكَ بِمَا يُرِيدُ مِنْهَا، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يُلْقِيَ بِخَوَاطِرَ وَصُوَرٍ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً، كُلَّمَا أَغْلَقْتَ عَنْهُ بَاباً جَاءَ مِنْ بَابٍ آخَرَ، وَكُلَّمَا مَنَعْتَهُ مِنْ جِهَةٍ جَاءَ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى، كُلُّ ذَلِكَ بِقَصْدِ صَرْفِ قَلْبِكَ عَمَّا تُرِيدُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ.

فَحِينَ تُرِيدُ ذِكْرَ اللهِ يَجِبُ أَنْ تَتَذَكَّرَ هَذَا الْعَدُوَّ وَعَدَاوَتَهُ، وَأَنْ تُبْصِرَ هَذِهِ الْعَدَاوَةَ بِعَيْنٍ فَاحِصَةٍ وَنَظْرَةٍ ثَاقِبَةٍ وَقَلْبٍ مُنْتَبِهٍ، فَمِثْلُ هَذَا الِانْتِبَاهِ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى يَكْفِيكَ شَرَّهُ وَيُقَلِّلُ مِنْ تَشْوِيشِهِ عَلَى قَلْبِكَ.

إِنَّ الْوِقَايَةَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَعَدَاوَتِهِ، وَالنَّصْرَ عَلَى وَسْوَسَتِهِ تَكُونُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ مِنْهُ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ سُورَةً كَامِلَةً لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ، هِيَ سُورَةُ (النَّاسِ)، وَسَنَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِرَاءَتَهَا فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرَّاتٍ؛ فَقِرَاءَةُ هَذِهِ السُّورَةِ بِقَلْبٍ مِنْ أَهَمِّ وَأَعْظَمِ الْأُمُورِ الْمُعِينَةِ عَلَى دَفْعِ كَيْدِ الشَّيْطَانِ.

إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَرَى الشَّيْطَانَ وَتُبْصِرَ عَدَاوَتَهُ فَابْدَأْ بِذِكْرِ اللهِ أَوِ الْقِرَاءَةِ مَعَ مُحَاوَلَةِ أَنْ تَكُونَ بِقَلْبٍ؛ أَيْ بِتَرْكِيزٍ تَامٍّ وَعَدَمِ حُصُولِ أَيِّ وَسَاوِسَ أَوْ سَهْوٍ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَإِنَّ كُلَّ كَلَامٍ يُقَاطِعُ وَيُعَاكِسُ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ وَيُشَوِّشُ عَلَى قِرَاءَتِكَ هُوَ الشَّيْطَانُ، هُوَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ نَسْتَعِيذَ مِنْ شَرِّهِ، ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

إِنَّ عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ تَبْدَأُ مُنْذُ وِلَادَتِهِ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا بِوَفَاتِهِ، وَلَحْظَةُ الْوَفَاةِ هِيَ أَخْطَرُ لَحْظَةٍ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، لِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ تَعَالَى أَنْ يَتَخَبَّطَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَنْ كَانَ مُجْتَهِداً فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، مُجَاهِداً لِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ وَعَدَاوَتِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَحْفَظُهُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

المسألة (٥): الابتلاء والاختبار

إِنَّ مِنْ سُنَّةِ اللهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يَبْلُوَهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَابْتِلَاءً وَاخْتِبَاراً، فَتَارَةً تَجِدُ أَنَّ قَلْبَكَ صَافٍ وَصَدْرَكَ مُنْشَرِحٌ، وَذِكْرَكَ لِلَّهِ بِمُنْتَهَى السُّهُولَةِ وَالتِّلْقَائِيَّةِ، ثُمَّ فَجْأَةً لَا تَدْرِي وَإِلَّا قَدْ صَعُبَ عَلَيْكَ التَّرْكِيزُ وَكَثُرَ مِنْكَ النِّسْيَانُ وَالذُّهُولُ، وَتَسَلَّطَ عَلَيْكَ الشَّيْطَانُ، وَصَعُبَ عَلَيْكَ ذِكْرُ اللهِ وَصَعُبَ عَلَيْكَ الْقِيَامُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ حَتَّى تُنْكِرَ نَفْسَكَ وَتَخْشَى عَلَى قَلْبِكَ مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ وَتَنْسَى كَثِيراً مِمَّا قَرَأْتَ، وَيَصْعُبُ عَلَيْكَ التَّرْكِيزُ فِي الصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَتَتَوَقَّعُ السُّقُوطَ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ، فَلَا تَقْلَقْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ، وَتَضَرَّعْ إِلَى رَبِّكَ وَالْجَأْ إِلَيْهِ وَتَمَسَّكْ بِمُنَاجَاتِهِ إِلَى أَنْ تَزُولَ الشِّدَّةُ وَالْكُرْبَةُ، وَهَكَذَا أَنْتَ فِي حَيَاتِكَ بَيْنَ عُسْرٍ وَيُسْرٍ وَشِدَّةٍ وَرَخَاءٍ، ابْتِلَاءً وَامْتِحَاناً؛ لِئَلَّا تَغْفُلَ، لِئَلَّا تَنْسَى فَقْرَكَ وَشِدَّةَ حَاجَتِكَ إِلَى رَبِّكَ.

إِنَّ الْمُؤْمِنَ كَمَا شَبَّهَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالزَّرْعِ؛ تُفِيئُهُ الرِّيَاحُ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى اسْتِقَامَتِهِ وَرَخَائِهِ وَيُسْرِهِ، أَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ صَلْبٌ يُقَاوِمُ الرِّيَاحَ إِلَى أَنْ تَأْتِيَهُ رِيحٌ تَكْسِرُهُ كَسْراً لَا يَعُودُ بَعْدَهَا أَبَداً، الْمَعْنَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يُصَابُ بِمَا يُقْلِقُهُ وَيُزْعِجُهُ وَيَعُوقُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَقَدْ يَزْدَادُ تَسَلُّطُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، وَتَضْعُفُ قُوَاهُ لَا لِهَوَانِهِ عَلَى رَبِّهِ، وَلَكِنْ تَذْكِيراً وَتَنْبِيهاً وَتَرْبِيَةً لَهُ لِئَلَّا يُعْجَبَ بِنَفْسِهِ وَيَنْسَى أَنَّهُ عَبْدٌ ضَعِيفٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَمَعَ كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَفِي فِقْهِ هَذَا الْمَعْنَى عَزَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَدْ يُصَابُونَ بِالضَّعْفِ أَحْيَاناً بَيْنَمَا يُشَاهِدُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ أَوِ الْغَافِلِينَ ذَوِي جَلَدٍ وَصَبْرٍ وَقُوَّةٍ لَا يُصِيبُهُمْ مَا يُوهِنُ قُوَاهُمْ وَمَا يَفُتُّ مِنْ عَضُدِهِمْ، فَهَذَا هُوَ السِّرُّ، وَهَذَا هُوَ الدَّرْسُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَفْقَهَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَلَا يَنْسَاهُ أَبَداً، فَإِذَا أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ.

المسألة (٦): الوسواس القهري

كَثُرَتْ فِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ الشَّكْوَى مِمَّا عُرِفَ بِالْوَسْوَاسِ الْقَهْرِيِّ، وَشَمِلَ مُعْظَمَ فِئَاتِ الْمُجْتَمَعِ، فَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى فِئَةٍ دُونَ أُخْرَى، فَهُوَ فِي الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ، وَفِي الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ، وَفِي الْمُتَدَيِّنِينَ وَغَيْرِ الْمُتَدَيِّنِينَ، وَهُوَ أَشْكَالٌ وَأَلْوَانٌ وَأَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ.

وَمِنَ الْوَاضِحِ جِدّاً مِنْ خِلَالِ شَكْوَى مَنْ أُصِيبُوا بِهِ أَنَّ مَحَلَّ الشَّكْوَى يَتَرَكَّزُ عَلَى وَسْوَاسٍ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، أَيْ كَلَامٍ يَصْدُرُ رَغْماً عَنْهُمْ، يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَيُمْلِي عَلَيْهِمُ الْمُعْتَقَدَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ، وَيَتَحَكَّمُ فِي قَرَارَاتِهِمْ، وَيُسَيِّرُهُمْ رَغْماً عَنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وَمَا دَامَ الْأَمْرُ بِهَذَا التَّشْخِيصِ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ عِلَاجُهُ مُطَابِقاً لِتَشْخِيصِهِ، وَأَقْرَبُ وَأَقْوَى عِلَاجٍ لِلْوَسْوَاسِ الْقَهْرِيِّ هُوَ دَوَامُ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ.

فَمَنْ يُوَاظِبْ عَلَى **الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ** فَإِنَّهُ يُرَكِّزُ الْعِلَاجَ عَلَى مَحَلِّ الْمَرَضِ تَحْدِيداً دُونَ

اسْتِطْرَادٍ لِأُمُورٍ أُخْرَى، وَدُونَ إِرْهَاقِ الْمَرِيضِ بِمَطَالِبَ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ لَا تَنْتَهِي، افْعَلْ كَذَا، قُلْ كَذَا، لَا تَقُلْ، لَا تَفْعَلْ.

الْوَسْوَاسُ الْقَهْرِيُّ هُوَ حَالَةٌ وَنَوْعٌ مِنَ الْوَسْوَاسِ الَّذِي أَمَرَنَا اللهُ أَنْ نَتَعَوَّذَ مِنْ شَرِّهِ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّاسِ.

هَذَا الْوَسْوَاسُ لَهُ مَعَ النَّفْسِ ثَلَاثُ حَالَاتٍ:

١- أَنْ تَكُونَ النَّفْسُ أَقْوَى مِنْهُ فَتُسَيْطِرَ عَلَيْهِ.

٢- أَنْ تَكُونَ النَّفْسُ أَضْعَفَ مِنْهُ فَيُسَيْطِرَ عَلَيْهَا.

٣- أَنْ تَكُونَ النَّفْسُ مُسَاوِيَةً لَهُ فِي الْقُوَّةِ فَيَحْصُلَ التَّصَادُمُ بَيْنَهُمَا.

وَفِي الْحَالَةِ الْأَخِيرَةِ يَظْهَرُ هَذَا الْوَسْوَاسُ فِي صُورَةِ مَرَضٍ، وَإِلَّا فَكُلُّ النَّاسِ (الْمُسْلِمُونَ وَغَيْرُ الْمُسْلِمِينَ) حَامِلُونَ لِهَذَا الْوَسْوَاسِ، وَهُوَ مُصَاحِبٌ لَهُمْ مُصَاحَبَةَ الْأَنْفَاسِ.

وَهَذَا جَوَابٌ لِسُؤَالٍ: لِمَاذَا يَظْهَرُ هَذَا الْوَسْوَاسُ فِي صُورَةٍ مَرَضِيَّةٍ فِي أُنَاسٍ دُونَ آخَرِينَ؟ فَهَذَا الْوَسْوَاسُ يَتَفَاوَتُ مِنْ شَخْصٍ لِآخَرَ قُوَّةً وَضَعْفًا، وَأَلْوَانُهُ وَأَشْكَالُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَكَذَلِكَ النَّاسُ يَتَفَاوَتُونَ فِي قُوَّةِ وَضَعْفِ قُلُوبِهِمْ، وَهَذَا الْأَمْرُ يَتَفَاوَتُ مِنْ وَقْتٍ إِلَى آخَرَ، وَبِنَاءً عَلَيْهِ فَإِنَّ الْبَعْضَ مِنَ النَّاسِ يَظْهَرُ لَدَيْهِ هَذَا الْوَسْوَاسُ فِي صُورَةٍ تُوصَفُ بِأَنَّهَا مَرَضِيَّةٌ وَيُعَانِي مِنْهُ مُعَانَاةً شَدِيدَةً، بَيْنَمَا آخَرُونَ لَا يَجِدُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْمُعَانَاةِ.

وَهَذَا ابْتِلَاءٌ وَاخْتِبَارٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ، كَمَا فَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَفِي صِحَّةِ وَمَرَضِ الْجَسَدِ، وَفِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ، وَصُورَةِ الْوَجْهِ وَاللَّوْنِ، وَفِي الذَّكَاءِ وَقُوَّةِ الْحِفْظِ وَغَيْرِهَا مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، الْإِنْسَانُ أَمَامَهَا فِي امْتِحَانٍ وَاخْتِبَارٍ، يَنْظُرُ اللهُ إِلَى مَا يَصْنَعُ، وَلْيَبْشُرْ مَنْ أُصِيبُوا بِالْوَسْوَاسِ الْقَهْرِيِّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِشَهَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ

بِالْإِيمَانِ حِينَ قَالَ: «**ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ**»، حِينَ أَخْبَرَهُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بِوُجُودِ الْوَسْوَاسِ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَنَّهُ يُلْقِي فِيهَا كَلَامـاً يَتَعَاظَمُونَ أَنْ يَنْطِقُوا بِهِ أَوْ يَحْكُوهُ لِغَيْرِهِمْ، لِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ، أَوْ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وَلْيَعْلَمْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ فِي جِهَادٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَلَيْسَتْ دَارَ إِقَامَةٍ وَاسْتِقْرَارٍ، وَأَنَّ مَا هُمْ فِيهِ هُوَ: الْإِيمَانُ، إِنْ صَبَرُوا وَاحْتَسَبُوا وَجَاهَدُوا، وَلَا يَظُنُّوا أَنَّ مَنْ سَلِمَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ حَالاً مِنْهُمْ، أَوْ أَنَّهُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً، بَلْ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَلَيْسَتْ دَارَ إِقَامَةٍ وَاسْتِقْرَارٍ.

الصِّرَاعُ بَيْنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ مُسْتَمِرٌّ حَتَّى تُفَارِقَ النَّفْسُ الْجَسَدَ، وَحِينَ ابْتَلَانَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِهَذَا الْبَلَاءِ لَمْ يَتْرُكْنَا عُزَّلاً فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ وَهَذِهِ الْحَرْبِ، بَلْ أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْهُدَى الَّذِي مَنِ اتَّبَعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، فَعِلَاجُ هَذَا الْوَسْوَاسِ يَكُونُ بِدَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ الَّذِي يُوجِدُ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ، وَيُقَوِّي التَّوْحِيدَ فِي الْقَلْبِ، فَيَضْعُفُ بِذَلِكَ الشَّيْطَانُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾.

مَا مِنْ إِنْسَانٍ إِلَّا وَمَعَهُ هَذَا الْوَسْوَاسُ، لَكِنْ تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُهُ وَأَلْوَانُهُ وَأَسَالِيبُهُ وَمَوْضُوعَاتُهُ وَطَرِيقَتُهُ مِنْ شَخْصٍ إِلَى آخَرَ، وَمَصْدَرُ هَذَا الْوَسْوَاسِ هُوَ الشَّيْطَانُ.

الْكُلُّ حَامِلٌ لِهَذَا الْوَسْوَاسِ حَتَّى الْأَطْفَالُ، وَيَجِبُ أَنْ نُدْرِجَ هَذَا الِاعْتِقَادَ فِي قَوَاعِدِ تَرْبِيَتِهِمْ، وَنَنْتَبِهَ لَهُ وَنَحْنُ نُوَجِّهُ سُلُوكَهُمْ؛ أَيْ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُمْكِنُهُ الْوُصُولُ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَإِمْلَاءُ بَعْضِ التَّصَرُّفَاتِ وَالسُّلُوكِيَّاتِ عَلَيْهِمْ، فَيَجِبُ تَعْوِيذُهُمْ، وَتَلْقِينُهُمُ التَّحْصِينَاتِ الشَّرْعِيَّةَ، وَتَرْبِيَتُهُمْ عَلَيْهَا وَتَفْقِيهُهُمْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِصُورَةٍ مُنَاسِبَةٍ؛ لِيَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَلِيَعْرِفُوا عَدُوَّهُمُ الْمُتَرَبِّصَ بِهِمْ، فَلَا يَغْفُلُوا عَنْ مُجَاهَدَتِهِ وَصَدِّ عُدْوَانِهِ وَكَيْدِهِ.

لَا أَظُنُّ مُسْلِمـاً يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ يُنْكِرُ الصِّرَاعَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ؛ فَالْأَدِلَّةُ عَلَى ثُبُوتِ هَذَا الْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَصَرِيحَةٌ، لَكِنْ يَبْقَى فِقْهُ هَذَا الْوَسْوَاسِ، وَمَعْرِفَةُ أَنْوَاعِهِ وَدَرَجَاتِهِ

وَمَرَاتِبِهِ وَأَشْكَالِهِ وَأَعْرَاضِهِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِقْهُ التَّعَامُلِ مَعَهُ.

المسألة (٧): أن تقول نفس يا حسرتى

جَاهِدْ وَاجْتَهِدْ فِي حَيَاةِ قَلْبِكَ وَتَحْصِيلِ الْأَرْبَاحِ وَاكْتِسَابِ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ بِأَعْمَالٍ سَهْلَةٍ يَسِيرَةٍ قَبْلَ ﴿**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾.

يُصَلِّي اثْنَانِ وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَالْحَسَنَاتِ وَالدَّرَجَاتِ، أَوْ يَجْلِسُ اثْنَانِ مُدَّةَ سَاعَةٍ أَوْ نِصْفِ سَاعَةٍ يَقْرَآنِ الْقُرْآنَ، وَإِنَّ مَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ، وَفِي الْفِقْهِ وَالْعِلْمِ وَالتَّدَبُّرِ فَرْقٌ كَبِيرٌ وَبَوْنٌ شَاسِعٌ؛ **السَّبَبُ الذِّكْرُ وَحَيَاةُ الْقَلْبِ**.

إِنَّهُ لَمِنَ الْغَبْنِ كُلِّ الْغَبْنِ، وَالْخَسَارَةِ الْكَبِيرَةِ أَنْ يَذْهَبَ جُهْدُكَ وَتَعَبُكَ وَنَصَبُكَ وَوَقْتُكَ فِي سَرَابٍ وَأَوْهَامٍ.

إِذَا تَعِبْتَ وَبَذَلْتَ وَقْتَكَ وَتَرَكْتَ رَاحَتَكَ وَلَهْوَكَ فَحَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَكْسِبَ وَتَغْنَمَ هَذَا الْجُهْدَ وَالْوَقْتَ بَدَلَ أَنْ يَسْرِقَهُ مِنْكَ الشَّيْطَانُ وَيَضِيعَ عَلَيْكَ فِي أَوْهَامٍ وَخَوَاطِرَ وَهَوَاجِسَ بَعِيداً عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي تَفَرَّغْتَ وَتَعِبْتَ مِنْ أَجْلِهِ، سَوَاءٌ كَانَ صَلَاةً أَوْ قِرَاءَةَ قُرْآنٍ، أَوْ تَسْبِيحاً أَوْ طَوَافاً وَسَعْياً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَتَّجِهُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، أَوْ حَتَّى الْأَعْمَالَ الدُّنْيَوِيَّةَ الَّتِي تَتَطَلَّبُ التَّرْكِيزَ وَجَمْعَ الْقَلْبِ.

المسألة (٨): هذه المفاتيح

مَفَاتِيحُ حَيَاةِ الْقَلْبِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا فِي الْأَهَمِّيَّةِ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ، فَبَعْضُهَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَعَ الْأَنْفَاسِ، وَبَعْضُهَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، فَكُنْ بَصِيراً بِهَذَا الْأَمْرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْتَلِطَ عَلَيْكَ الْأُمُورُ، فَتَسْتَصْعِبَ السَّهْلَ، أَوْ تَسْتَكْثِرَ الْقَلِيلَ، فَكُلُّ مِفْتَاحٍ لَهُ وَزْنُهُ وَثِقَلُهُ، وَكُلُّ مِفْتَاحٍ يُسْتَعْمَلُ فِي وَقْتِهِ، وَإِنْ صَعُبَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ فَعَلَيْكَ بِالْمِفْتَاحِ الْأَوَّلِ؛ تَمَسَّكْ بِهِ وَعَضَّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ؛ فَهُوَ الْمِفْتَاحُ الْأُسْتَاذُ، الَّذِي يَأْتِيكَ بِبَقِيَّةِ الْمَفَاتِيحِ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ، هُوَ

مَوْلَانَا نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

المفتاح (١): الاستعانة بالله تعالى

الْمِفْتَاحُ الْأَوَّلُ مِنْ مَفَاتِحِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى هُوَ الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ عَلَى ذِكْرِهِ، وَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِبَّهُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»، وَفِي كُلِّ رَكْعَةٍ نُصَلِّيهَا نَدْعُو اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعِينَنَا عَلَى ذِكْرِهِ حِينَ نَقُولُ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾.

الِاسْتِعَانَةُ بِاللهِ تَعَالَى لَازِمَةٌ لِلْعَبْدِ فِي كُلِّ شَأْنِهِ لَا يَنْفَكُّ عَنْ عَوْنِ رَبِّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَوَّلُ ذَلِكَ الذِّكْرُ؛ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى رَبِّهِ أَوَّلاً أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِذِكْرِهِ فَتُوجَدَ لَدَيْهِ الرَّغْبَةُ وَالْإِرَادَةُ، وَثَانِيًا أَنْ يُيَسِّرَ لَهُ أَسْبَابَ الذِّكْرِ، وَثَالِثًا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ الْقَوَاطِعَ وَالْمَوَانِعَ وَعَلَى رَأْسِهَا الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ.

فَكُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهَا اللهُ لِعَبْدِهِ لَمْ تَتَيَسَّرْ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ دَائِمًا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ دُونَ الْمَيْلِ لِأَيٍّ مِنَ الطَّرَفَيْنِ فَلَا يَأْسَ وَلَا أَمْنَ، بَلْ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، يَسِيرُ بِقَلْبٍ مِلْؤُهُ الرَّجَاءُ وَعَظِيمُ الْأَمَلِ بِاللهِ تَعَالَى مَهْمَا كَانَتِ الْأَحْوَالُ، وَبِقَلْبٍ مِلْؤُهُ الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ مِنَ الْقَوَاطِعِ وَالصَّوَارِفِ مَهْمَا كَانَ التَّيْسِيرُ وَالْأَمَانُ.

فَأَهَمُّ مِفْتَاحٍ مِنْ مَفَاتِحِ ذِكْرِ اللهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْكَ رَبُّكَ فَيَشْرَحَ صَدْرَكَ لِذِكْرِهِ، فَمَتَى وُجِدَ الْحُبُّ كَانَ الذِّكْرُ فِي أَعْلَى مُسْتَوَيَاتِهِ، وَمَتَى نَقَصَ أَوْ عُدِمَ احْتَاجَ الْأَمْرُ إِلَى مُجَاهَدَةٍ وَمُكَابَدَةٍ.

الرَّغْبَةُ وَالْحُبُّ بِيَدِ اللهِ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُهُ مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾.

وَمِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ عَلَى ذِكْرِهِ الِاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ تَعَالَى مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَهَذَا هُوَ الْمِفْتَاحُ الثَّانِي.

المفتاح (٢): الاستعاذة

وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي الْمُصَلِّي حِينَ يَدْخُلُ فِي صَلَاتِهِ يَقُولُ لَهُ: «اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى لَا يَدْرِيَ أَحَدُكُمْ كَمْ صَلَّى».

وَقَدْ أَرْشَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْعِلَاجِ فَقَالَ: «**فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَانْفُثْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا**».

إِذَنْ وَاضِحٌ أَنَّ مَا نُعَانِي مِنْهُ مِنَ انْصِرَافِ الْقَلْبِ وَالْهَوَاجِسِ مَصْدَرُهُ الشَّيْطَانُ الَّذِي قَطَعَ عَلَى نَفْسِهِ الْعَهْدَ أَنْ يُغْوِيَ بَنِي آدَمَ وَهُوَ يَحْسُدُهُمْ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، خَاصَّةً حِينَ يَقُومُ الْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ التَّشْخِيصَ فَالْأَمْرُ وَاضِحٌ، وَالْعِلَاجُ جَاءَ بِالنَّصِّ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾، فَلَا نَجَاةَ وَلَا خَلَاصَ مِنْ كَيْدِ هَذَا الْعَدُوِّ الْخَفِيِّ إِلَّا بِإِعَانَةِ اللهِ تَعَالَى وَنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ وَلُطْفِهِ.

وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ يَقِظًا مُنْتَبِهًا؛ لِئَلَّا يَقْتَنِصَ الشَّيْطَانُ قَلْبَهُ فَيَسْرَحَ بِهِ بَعِيداً عَنْ ذِكْرِ اللهِ، وَيَمْضِيَ وَقْتٌ طَوِيلٌ قَبْلَ أَنْ يُفِيقَ وَيَنْتَبِهَ وَيَتَذَكَّرَ.

المفتاح ٣ : القراءة الأسبوعية لفضائل ذكر الله

فِي كِتَابِ (مُعْجَمِ السُّنَّةِ التَّرْبَوِيِّ) بَابُ: فَضَائِلِ ذِكْرِ اللهِ، وَهُوَ فِي خَمْسِ صَفَحَاتٍ، مِنَ الضَّرُورِيِّ جِدّاً قِرَاءَتُهُ مَرَّةً كُلَّ أُسْبُوعٍ عَلَى الْأَقَلِّ، وَإِنْ تَيَسَّرَ قِرَاءَةُ كِتَابِ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ كَامِلاً، وَهُوَ فِي خَمْسِينَ صَفْحَةً، فَهَذَا أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ.

إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ ضَرُورِيَّةٌ لِلْعَبْدِ أَشَدُّ مِنْ ضَرُورَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنَّفَسِ، لِأَنَّ فِيهَا حَيَاةَ الْقَلْبِ، تَضَمَّنَتْ عِلْمًا عَظِيمًا لَا يَصِحُّ أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْقَلْبِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَإِنَّ نِسْيَانَ هَذَا الْعِلْمِ أَكْبَرُ سَبَبٍ لِلْغَبْنِ وَالْخَسَارَةِ وَفَوَاتِ الْحَظِّ.

المفتاح (٣): المناجاة

يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَحْضِرَ دَائِمًا أَنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ وَيُكَلِّمُهُ، وَأَنَّهُ فِي خِطَابٍ مُسْتَمِرٍّ مَعَ رَبِّهِ مَا دَامَ يُنَادِيهِ وَيُنَاجِيهِ، وَيَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مُنَاجَاتَهُ، قِرَاءَتَهُ وَدُعَاءَهُ، وَيَرَى مَكَانَهُ وَيَعْلَمُ حَالَهُ.

وَإِنَّ مِمَّا يُعِينُ عَلَى تَنْبِيهِ الْقَلْبِ وَاسْتِحْضَارِهِ لِهَذِهِ الْمُنَاجَاةِ اسْتِخْدَامُ الْمَدِّ أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ أَوِ الدُّعَاءِ؛ مَدِّ التَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ، وَمَدِّ التَّضَرُّعِ وَالِاسْتِغَاثَةِ.

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ تَكْرَارُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى مَعِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَقُرْبِهِ مِنْ عِبَادِهِ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ.

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُكْثِرَ الْعَبْدُ مِنَ الْأَدْعِيَةِ أَوِ الْأَذْكَارِ الَّتِي فِيهَا خِطَابٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَاسْتِحْضَارٌ لِمَعِيَّتِهِ وَعَوْنِهِ وَنَصْرِهِ؛ وَمِنْ أَمْثِلَةِ ذَلِكَ دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَرَى مَكَانِي، وَتَسْمَعُ مَقَالِي، وَتَعْلَمُ حَالِي، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي**» ، ودعاء مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾، وَدُعَاءِ زَكَرِيَّا: ﴿**رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾، وقول موسى : ﴿**إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾، وَقَوْلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾، وَمِنْ ذَلِكَ مُنَاجَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَبِّهِ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنَ الطَّائِفِ، وَمِنْ ذَلِكَ دُعَاءُ يُونُسَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، وَدُعَاءُ أَيُّوبَ، وَغَيْرُ ذَلِكَ أَدْعِيَةٌ فِيهَا اسْتِحْضَارُ الْقُرْبِ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَى عَبْدِهِ، وَأَنَّهُ مَعَهُ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ.

الْمُنَاجَاةُ هِيَ أَنْ تَدْعُوَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَيَرَاكَ، وَتَسْمَعُهُ وَيُسْمِعُكَ.

وَأَنْ يَكُونَ الدُّعَاءُ دُعَاءَ مُضْطَرٍّ مُنْكَسِرٍ مُتَذَلِّلٍ خَاضِعٍ يَرْجُو وَيَخَافُ.

فَكَثْرَةُ مِثْلِ هَذَا الدُّعَاءِ خِلَالَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ يَجْعَلُ الْقَلْبَ حَيًّا طَاهِراً رَقِيقًا، سَرِيعًا لِلْخَيْرِ، مُعْرِضًا عَنِ الشَّرِّ، نَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ مِنْ فَضْلِهِ.

المفاتيح (٤) و (٥) و (٦): دوام الجهر بذكر الله

إِنَّ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَزَكَاةَ النَّفْسِ تَكُونُ بِدَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، حَقِيقَةٌ قَرَّرَهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّهَا حَقِيقَةٌ يَعْجِزُ عَنْ فِقْهِهَا الْبَشَرُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِهَا مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ، هَذِهِ الْحَقِيقَةُ لَخَّصَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»، هَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْعَظِيمَةُ الضَّخْمَةُ الْجَلِيلَةُ أَهْدَاهَا لَنَا الْمُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجَّانًا، وَوَصَلَتْ إِلَيْنَا دُونَ كَدٍّ أَوْ تَعَبٍ، إِنَّهَا قَاعِدَةٌ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا بِنَاءُ الْقَلْبِ وَصِنَاعَةُ الْإِنْسَانِ.

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**»، وأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تُكْثِرُوا الْكَلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي**»، وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: قُلْ: رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا**»، وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ

عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ [أَيْ تَذِلُّ وَتَخْضَعُ]، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**».

إِنَّ الْإِحَالَةَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ عَلَى أَمْرٍ ظَاهِرٍ يُدْرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ مَهْمَا كَانَ، وَهُوَ خَالٍ مِنَ الْفَلْسَفَةِ وَالتَّعْقِيدِ وَالتَّقْعِيدِ، إِنَّهُ بِكُلِّ سُهُولَةٍ: «لِسَانُكَ»، نَعَمْ لِسَانُكَ لَابُدَّ أَنْ يَكُونَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ النَّجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ تَوْجِيهٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ وَمِقْيَاسٌ دَقِيقٌ عَمِيقٌ.

لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ أَوَّلَ مَا أُطْلِقَتْ مُوَجَّهَةً إِلَى أَعْرَابِيٍّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ وَلَا يَحْفَظُ، جَاءَ يُرِيدُ أَمْراً مُخْتَصَراً سَهْلاً، يُرِيدُ مُلَخَّصًا فِي تَرْبِيَةِ النَّفْسِ وَالِاسْتِقَامَةِ عَلَى شَرِيعَةِ اللهِ، فَأَهْدَى إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلنَّاسِ كُلِّهِمْ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْوَاضِحَةَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي يَفْهَمُهَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ قَبْلَ الْعَالِمِ الْكَبِيرِ، وَالْعَامِّيُّ الْأُمِّيُّ قَبْلَ الْعَالِمِ الْأَلْمَعِيِّ، وَيَسْتَطِيعُهَا الْعَاجِزُ الضَّعِيفُ قَبْلَ الْجَلْدِ الْقَوِيِّ.

لَقَدْ لَخَّصَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ فِي ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ:

الْأُولَى: «**لَا يَزَالُ**» أَيِ الدَّوَامُ وَالِاسْتِمْرَارُ وَمَسْكُ الزِّمَامِ.

فَذِكْرُ اللهِ لَيْسَ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ فَقَطْ، وَلَيْسَ فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، بَلْ ذِكْرُ اللهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ**﴾، وَيَقُولُ تَعَالَى: ﴿**إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾.

الثَّانِيَةُ: «**لِسَانُكَ رَطْبًا**»؛ أَيْ: كَثْرَةُ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ، أَيِ الْحَرَكَةُ الدَّائِمَةُ لِلِّسَانِ وَعَدَمُ تَوَقُّفِهِ بِحَيْثُ يَسْتَمِرُّ رَطْبًا.

نَصَّ عَلَى اللِّسَانِ مَعَ أَنَّ الْمَدَارَ عَلَى الْقَلْبِ؛ لِأَنَّهُ الْأَمْرُ الظَّاهِرُ الَّذِي يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَسَمَاعُهُ، وَمِنْ ثَمَّ تَرْكِيزُ التَّوْجِيهِ عَلَيْهِ.

إِنَّ مُحَاوَلَةَ قِيَادَةِ الْقَلْبِ دُونَ أَيِّ مُسَاعَدَةٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى صَعْبٌ جِدّاً، وَاسْتِخْدَامُ اللِّسَانِ لِلتَّحَكُّمِ فِي قِيَادَةِ الْقَلْبِ يُسَهِّلُ عَمَلِيَّةَ ضَبْطِهِ وَالتَّحَكُّمِ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: «**بِذِكْرِ اللهِ**» مَعْنَاهُ أَنْ تَكُونَ الْقِرَاءَةُ بِقَلْبٍ؛ أَيْ: بِوَعْيٍ وَانْتِبَاهٍ، أَمَّا إِنْ كَانَتْ حَرَكَةُ اللِّسَانِ بِالْقِرَاءَةِ غَيْرَ مُتَفَقِّهٍ مَعَ كَلَامِ الْقَلْبِ فَهَذَا لَيْسَ بِذِكْرٍ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُوَافَقَةِ الْقَلْبِ لِلِّسَانِ لِكَيْ يَكُونَ ذِكْراً، أَمَّا إِنْ كَانَ اللِّسَانُ لَهُ كَلَامٌ وَالْقَلْبُ لَهُ كَلَامٌ آخَرُ فَهَذَا لَيْسَ بِذِكْرٍ لِلَّهِ.

إِنَّ الْقَلْبَ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِمِذْيَاعٍ قَنَاةٍ تِلِفِزْيُونِيَّةٍ أَوْ صَوْتِيَّةٍ، يَعْمَلُ عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ، فَإِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمُتَكَلِّمَ أَمْسَكْتَ بِهِ، وَإِنْ سَكَتَّ وَغَفَلْتَ وَلَوْ لَحْظَةً تَكَلَّمَ بِهِ غَيْرُكَ؛ أَعْنِي الشَّيْطَانَ الْمُتَرَبِّصَ بِكَ يُرِيدُ اقْتِنَاصَ فُرْصَةٍ يَدْخُلُ مِنْهَا إِلَى الْقَلْبِ، وَيَعِيثُ فِيهِ فَسَاداً.

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ: إِنَّمَا أَنْتَ كَلَامٌ، الْقَلْبُ لَا يَسْكُتُ أَبَداً، بَلْ يَتَكَلَّمُ عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ، بَلِ الدَّقِيقَةِ وَالثَّانِيَةِ، وَلَا يُمْكِنُ إِسْكَاتُهُ، بَلْ كَلَامُهُ يَجْرِي مَعَ الْأَنْفَاسِ، أَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَإِنْ كَانَ لِسَانُكَ صَامِتاً، **لَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْكُتَ عَنِ الْكَلَامِ لَحْظَةً وَاحِدَةً**، إِنَّ الْقَلْبَ يَتَكَلَّمُ عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ لَا يَسْكُتُ أَبَداً، فَإِمَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ.

الرَّسُولُ الْكَرِيمِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَّ بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ عَلَى أَنَّ صِنَاعَةَ الْإِنْسَانِ كَلَامٌ، بِنَاءُ كَلِمَاتٍ، تَكْرَارُ عِبَارَاتٍ بِكَثْرَةٍ وَبِاسْتِمْرَارٍ.

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُمْكِنُ بِنَاءُ وَصِنَاعَةُ الْإِنْسَانِ، أَيِّ إِنْسَانٍ وَأَيِّ صِنَاعَةٍ، الْأَمْرُ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْكَلِمَاتِ الَّتِي يَتِمُّ تَكْرَارُهَا وَطَرِيقَةُ تَكْرَارِهَا.

فَيُمْكِنُ صَبْغُ الْإِنْسَانِ وَتَشْكِيلُهُ بِأَيِّ لَوْنٍ وَأَيِّ مَنْهَجٍ وَأَيِّ فِكْرٍ وَأَيِّ عَقِيدَةٍ بِحَسْبِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي يُطْلَبُ مِنْهُ تَكْرَارُهَا، ثُمَّ يَلْتَزِمُ بِذَلِكَ، وَكُلَّمَا كَانَ التَّكْرَارُ أَكْثَرَ وَأَعْمَقَ كَانَ

الْبِنَاءُ أَقْوَى وَأَرْسَخ، وَقَدِ اسْتَغَلَّتْ دُوَلُ الْعَالَمِ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ التَّرْبَوِيَّةَ فِي تَرْسِيخِ وَطَنِيَّةِ جُنُودِهَا وَطُلَّابِهَا.

إِنَّ قِيَادَةَ الْقَلْبِ تَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ الْمُبَادَرَةِ وَمَسْكِ الزِّمَامِ، وَلَيْسَ مَبْدَأَ الدِّفَاعِ وَالْمُقَاوَمَةِ، وَقَدْ لَخَّصَ بَعْضُهُمْ هَذَا الْمَبْدَأَ بِقَوْلِهِ: «**وَنَفْسُكَ إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا بِالْحَقِّ شَغَلَتْكَ بِالْبَاطِلِ**».

مَنْ يَتَرَبَّى عَلَى هَذَا الْمَبْدَأِ يَجِدُ أَنَّ قِيَادَةَ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ -بِعَوْنِ اللهِ- سَهْلَةٌ سَلِسَةٌ، يُمْكِنُ تَوْجِيهُهَا إِلَى أَيِّ اتِّجَاهٍ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، حَالَ الصَّفَاءِ أَوْ حَالَ الشَّتَاتِ، أَمَّا مَنْ يَتَرَبَّى عَلَى مَبْدَأِ الدِّفَاعِ وَالْمُقَاوَمَةِ فَسَيَجِدُ صُعُوبَةً فِي قِيَادَةِ النَّفْسِ فِي مُعْظَمِ الْأَحْوَالِ، الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَبْدَأَيْنِ فِي التَّطْبِيقِ وَالتَّرْبِيَةِ يَسِيرٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي النَّتَائِجِ وَالثَّمَرَاتِ كَبِيرٌ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَذَاكَ الَّذِي عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْخَطَرِ وَأَسْلَمَ قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ لِعَدُوِّهِ، وَتَرَكَ لَهُ الْبَابَ مَفْتُوحـًا يَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيُفْسِدُ فِي أَيِّ وَقْتٍ.

إِنَّ مِقْوَدَ الْقَلْبِ هُوَ اللِّسَانُ، وَمَنْ يَتَعَوَّدْ عَلَى قِيَادَةِ قَلْبِهِ بِلِسَانِهِ يُمْكِنْهُ الِاسْتِغْرَاقُ فِي أَيِّ مَكَانٍ وَأَيِّ ظَرْفٍ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِمَا حَوْلَهُ مَهْمَا كَانَ الْإِزْعَاجُ، قَدْ يَرَى الْبَعْضُ أَنَّ قِيَادَةَ الْقَلْبِ بِمِثْلِ هَذِهِ الصُّورَةِ وَهَذَا الْمُسْتَوَى لَا يُمْكِنُ إِلَّا لِلنَّوَادِرِ وَهُمْ قِلَّةٌ فِي كُلِّ أُمَّةٍ، وَلَا جَوَابَ لِمِثْلِ هَذَا الِاعْتِرَاضِ إِلَّا الْمَيْدَانُ، مُخْتَبَرُ وَمَعْمَلُ الْحَيَاةِ، فَهُوَ الَّذِي يُثْبِتُ صِحَّةَ هَذَا الْكَلَامِ أَوْ عَدَمَهُ، وَالنَّمَاذِجُ عَبْرَ التَّارِيخِ يَصْعُبُ حَصْرُهَا، وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى التَّجَارِبِ وَالْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، لِأَنَّ الْأَمْرَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَخْضَعَ لِلتَّجْرِبَةِ وَالْبَحْثِ، أَوْ يَحْتَاجَ إِلَى شَهَادَةِ التَّارِيخِ وَالْمُخْتَبَرِ، أَوْ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ عِنْدَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَيَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ.

فَالْوَعْدُ جَاءَ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿**وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، وَ(لَعَلَّ) هُنَا بِمَعْنَى (كَيْ)؛ أَيْ لِكَيْ تُفْلِحُوا، وَلَيْسَ مَعْنَاهَا الِاحْتِمَالَ؛ لِأَنَّ (لَعَلَّ) وَ (عَسَى) إِذَا ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ مَنْسُوبَةً لِلَّهِ فَمَعْنَاهَا التَّحْقِيقُ وَالتَّأْكِيدُ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ، فَمَعْنَى

الْآيَةِ: مَنْ يَذْكُرِ اللهَ كَثِيراً فَإِنَّهُ حَتْماً وَقَطْعاً سَيُفْلِحُ وَيَنْجَحُ دُونَ أَدْنَى شَكٍّ أَوْ رَيْبٍ، وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ.

وَجَاءَ التَّفْسِيرُ الْعَمَلِيُّ لِهَذِهِ الْآيَةِ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ**».

وَمِنْ أَعَاجِيبِ التَّأْكِيدِ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾ فَلَاحِظِ الرَّبْطَ بَيْنَ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ وَبَيْنَ تَدْرِيبِ اللِّسَانِ عَلَى الْكَلَامِ الطَّيِّبِ وَبُعْدِهِ عَنِ اللَّغْوِ؛ فَكَثْرَةُ اللَّغْوِ، وَكَثْرَةُ سَمَاعِهِ هُوَ الَّذِي يُفْسِدُ الْقَلْبَ وَيُذْهِبُ الْخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ.

إِنَّ دَوَامَ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ يَسْقِي قَلْبَكَ بِمَاءِ الْحَيَاةِ، وَرَبِيعِ الْقُلُوبِ، وَيُضِيئُهُ بِنُورِ اللهِ، هَذَا النُّورُ الَّذِي يُحْرِقُ كُلَّ شَيْطَانٍ فِي الْقَلْبِ، وَيَقْتُلُ جَمِيعَ وَسَاوِسِهِ، وَلَا يُبْقِي لَهَا أَثَراً، وَلَا يَتَمَكَّنُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى مِنْ إِيقَافِكَ عَنْ أَيِّ أَمْرٍ تُرِيدُهُ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْخِلَ فِيهِ أَيَّ صُورَةٍ أَوْ صَوْتٍ مَمْنُوعٍ، بَلْ يَبْقَى الْقَلْبُ مَحْرُوساً مَحْفُوظاً بِحِفْظِ اللهِ، يُصْبِحُ الْقَلْبُ طَاهِراً نَقِيّاً مُحَلِّقاً فِي آفَاقِ الْمَعَالِي، وَلَنْ تَرَى بِإِذْنِ اللهِ أَيَّ صُدُودٍ أَوْ ثِقَلٍ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَذِكْرِهِ، أَوْ تَكَاسُلٍ عَنْ إِنْجَازِ وَاجِبٍ مِنْ وَاجِبَاتِكَ.

المفتاح (٧): التحديد والمنع

لِنَعْلَمْ أَنَّ جَمْعَ الْقَلْبِ وَحُضُورَهُ هُوَ الْمَقْصُودُ وَهُوَ الْمُؤَثِّرُ فِي تَكْثِيرِ الثَّوَابِ وَفِي حَيَاةِ الْقَلْبِ؛ لِذَا لَا بُدَّ مِنَ الْمُجَاهَدَةِ بِفِعْلِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُحَقِّقُ الْقِرَاءَةَ بِقَلْبٍ.

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿**مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُهُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَغْلِبَ أَحَدُهُمَا، فَإِذَا أَرَدْتَ الذِّكْرَ فَلَا بُدَّ أَنْ تُرَكِّزَ قَلْبَكَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ مِمَّا يُسَاعِدُ عَلَى تَحْقِيقِ مَا ذُكِرَ أَمْرَانِ مُتَلَازِمَانِ:

الْأَوَّلُ: التَّحْدِيدُ: وَيَكُونُ بِأَمْرَيْنِ: بِالْعَدَدِ، أَوْ بِالْوَقْتِ، أَوْ بِهِمَا مَعاً.

الثَّانِي: الْمَنْعُ: وَيَكُونُ بِخَمْسَةِ أُمُورٍ: الْوَجْهِ، والْعَيْنِ، واللِّسَانِ، والْيَدَيْنِ، والْقَلْبِ.

فَأَوَّلاً يَتِمُّ تَحْدِيدُ نَوْعِ مِنَ الذِّكْرِ الْمَطْلُوبِ، وَيَكُونُ التَّحْدِيدُ بِعَدَدٍ أَوْ بِوَقْتٍ، وَخِلَالَ التَّنْفِيذِ يَجِبُ مَنْعُ هَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ أَنْ تَشْتَغِلَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، إِلَى أَنْ يَتِمَّ تَنْفِيذُ مَا تَمَّ تَحْدِيدُهُ، وَاعْتِبَارُ أَنَّ ذَلِكَ صَلَاةٌ لَهُ تَقْدِيرُه وَاحْتِرَامُه، أَمَّا مُحَاوَلَةُ الذِّكْرِ دُونَ تَحْدِيدٍ، أَوْ بِتَحْدِيدٍ دُونَ مَنْعٍ فَمَصِيرُ ذَلِكَ عَدَمُ التَّنْفِيذِ، وَتَعَاقُبُ السَّاعَاتِ فِي سَهْوٍ وَنِسْيَانٍ.

لَا بُدَّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مَعـًا، تَحْدِيدٌ وَمَنْعٌ، أَمَّا طَلَبُ الذِّكْرِ دُونَ تَحْدِيدٍ وَدُونَ مَنْعٍ فَهُوَ فَوْضَى وَتَرْقِيمٌ عَلَى مَاءٍ، أَوْ رَسْمٌ فِي الْهَوَاءِ سُرْعَانَ مَا تَنْسَى وَتَغْلِبُكَ الْهَوَاجِسُ وَتَذْهَبُ بِكَ كُلَّ مَذْهَبٍ.

لَا بُدَّ مِنْ تَحْدِيدٍ ثُمَّ تَحْدِيدٍ، لَا تَسْأَمْ وَلَا تَمَلَّ؛ فَهُوَ عِبَادَةٌ وَجِهَادٌ وَهُوَ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ عُبُودِيَّةِ اللهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَتَحْقِيقِ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَتَحْقِيقِ ذِكْرِ اللهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

أَمَّا الِاسْتِسْلَامُ وَعَدَمُ التَّحْدِيدِ بِأَيِّ دَعْوَى كَانَتْ فَهُوَ مَضْيَعَةٌ لِلْعُمْرِ وَثَوَانِي الْحَيَاةِ فِي سَرَابٍ لَا نِهَايَةَ لَهُ، يَضِيعُ عُمْرُكَ فِي خَوَاطِرَ لَا تُغْنِي عَنْكَ شَيْئـًا.

مَنْ يُجَاهِدُ فِي التَّحْدِيدِ وَالْمَنْعِ فَإِنَّهُ بَعْدَ مُدَّةٍ يُبْصِرُ كَيْفَ أَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فِي وَهْمٍ، يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي وَهُوَ لا يُصَلِّي، يَظُنُّ أَنَّهُ يَقْرَأُ وَهُوَ لا يَقْرَأُ، يَظُنُّ أَنَّهُ يَذْكُرُ وَيُسَبِّحُ بَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ إِلَى أُذُنَيْهِ فِي سَرَابٍ لَمْ يَذْكُرِ اللهَ.

إِنَّ مِمَّا يُعِينُ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَثْبِيتَ وَسُكُونَ الْجَوَارِحِ، فَسُكُونُ الْجَوَارِحِ يُؤَثِّرُ جِدّاً فِي سُكُونِ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ كَثْرَةَ حَرَكَتِهَا دَلِيلُ سَهْوِ الْقَلْبِ وَغَفْلَتِهِ، وَأَنَّ مِقْوَدَهُ بِيَدِ الشَّيْطَانِ يُوَجِّهُهُ كَمَا يُرِيدُ، فَمَتَى أَرَدْنَا الذِّكْرَ وَالْإِنْصَاتَ فَلَا بُدَّ مِنْ تَثْبِيتِ نَظَرِ الْعَيْنِ، وَتَثْبِيتِ الْيَدَيْنِ وَعَدَمِ تَحَرُّكِهَا طُولَ الْقِرَاءَةِ، وَأَيْضـًا تَثْبِيتُ الْوَجْهِ وَعَدَمُ الْتِفَاتِهِ، فَمَتَى الْتَزَمَ الْقَارِئُ بِتَثْبِيتِ هَذِهِ الْجَوَارِحِ الثَّلَاثِ: الْعَيْنِ، الْيَدَيْنِ، الْوَجْهِ، فَهَذَا يُسَهِّلُ تَثْبِيتَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ عَلَى مَا يُرَادُ

قِرَاءَتُهُ، وَتَحْقِيقُ مُسْتَوَى أَعْلَى مِنَ الِانْتِبَاهِ وَالتَّرْكِيزِ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى الْفِقْهِ وَالْفَهْمِ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ.

وَلْيَنْتَبِهِ الذَّاكِرُ لِأَهَمِّيَّةِ تَحْرِيكِ اللِّسَانِ وَالشَّفَتَيْنِ بِمَا يَقْرَأُ أَوْ يَذْكُرُ، فَإِنَّ سُكُونَ اللِّسَانِ وَخُمُولَهُ دَلِيلٌ عَلَى سَهْوِ الْقَلْبِ، كَمَا أَنَّ شِدَّةَ تَحْرِيكِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَيَاةِ الْقَلْبِ.

وَمِمَّا يُحَقِّقُ الْقِرَاءَةَ بِقَلْبٍ وَيُقَوِّي الِانْتِبَاهَ فِي ذِكْرِ اللهِ عَدُّ الذِّكْرِ بِالْأَصَابِعِ، وَتَرْكِيزُ النَّظَرِ إِلَيْهَا حَتَّى يَتِمَّ التَّنْفِيذُ، فَرَبْطُ الْعَيْنِ بِالْيَدَيْنِ مُفِيدٌ جِدّاً فِي حُضُورِ الْقَلْبِ وَعَدَمِ السَّهْوِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ، أَوْ خَارِجَ الصَّلَاةِ.

وَقَدْ حَرَصَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى تَحْدِيدِ عَدَدٍ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَذْكَارِ، وَمِنْ مَقَاصِدِ ذَلِكَ الْمُهِمَّةِ تَحْقِيقُ التَّرْكِيزِ وَالِانْتِبَاهِ، ثُمَّ تَحْقِيقُ الْإِنْجَازِ وَزِيَادَةِ الْإِنْتَاجِيَّةِ.

مِمَّا يُسَاعِدُ جِدّاً عَلَى التَّرْكِيزِ تَحْدِيدُ وَقْتِ الْقِرَاءَةِ بِدَايَةً وَنِهَايَةً، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا التَّحْدِيدُ مُنَاسِباً لِنَوْعِ وَمِقْدَارِ مَا يُرَادُ قِرَاءَتُهُ، أَمَّا الْقِرَاءَةُ دُونَ تَحْدِيدِ نِهَايَةِ الْوَقْتِ فَإِنَّ هَذَا يَفْتَحُ الْمَجَالَ لِلتَّشَاغُلِ عَنِ الْقِرَاءَةِ وَالْخُرُوجِ عَنْهَا، خَاصَّةً إِنْ كَانَتْ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى مُجَاهَدَةٍ لِجَمْعِ الْقَلْبِ عَلَيْهَا؛ مِثْلَ الصَّلَاةِ أَوْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، أَوْ قِرَاءَةِ كُتُبِ الْعِلْمِ، أَوِ التَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيدِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْوَقْتُ الْمُحَدَّدُ قَصِيراً كَانَ التَّرْكِيزُ أَعْلَى.

وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْوَقْتِ الطَّوِيلِ إِلَى قِرَاءَةٍ، ثُمَّ فَاصِلٍ، ثُمَّ قِرَاءَةٍ، وَهَكَذَا؛ فَمَثَلاً: تَقْرَأُ لِمُدَّةِ سَبْعِ دَقَائِقَ، وَتَتْرُكُ فَاصِلاً ثَلَاثَ أَوْ أَرْبَعَ دَقَائِقَ، أَوْ تَقْرَأُ عِشْرِينَ دَقِيقَةً، وَخَمْسَ دَقَائِقَ فَاصِلاً، وَهَكَذَا، وَهَذَا يُفِيدُ جِدّاً فِي مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ دُونَ مَلَلٍ وَدُونَ ضَيَاعِ الْوَقْتِ الثَّمِينِ فِي الْهَوَاجِسِ وَالْأَفْكَارِ الْمُتَطَفِّلَةِ. [انْظُرْ : (قَاعِدَةَ ضَغْطِ الْوَقْتِ) فِيْ كِتَابِ مَفَاتِيحِ إِنْجَازِ الْأَهْدَافِ]

المفتاح (٨): التجديد والتنويع

مِنَ الْمَفَاتِيحِ الْمُهِمَّةِ لِحُضُورِ الْقَلْبِ وَتَحْقِيقِ التَّرْكِيزِ تَجْدِيدُ الْكَلَامِ وَتَغْيِيرُ طَرِيقَتِهِ،

وَهَذَا مَعْلُومٌ فِي أَقْوَالِ الصَّلَاةِ؛ حَيْثُ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَوِّعُ الْأَذْكَارَ فِي كُلِّ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ، وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ لِلْقَلْبِ وَتَجْدِيدٌ لِلنَّشَاطِ.

وَمِنْ ذَلِكَ عَدَمُ اعْتِيَادِ قِرَاءَةِ سُوَرٍ مُعَيَّنَةٍ فِي صَلَاةِ الْفَرْضِ أَوِ النَّافِلَةِ، بَلْ يُنَوِّعُ وَيُغَيِّرُ السُّوَرَ الَّتِي يَقْرَؤُهَا، وَفِي صَلَاةِ اللَّيْلِ يَكُونُ لَهُ قَدْرٌ مَحْفُوظٌ مِنَ الْقُرْآنِ يَقْرَؤُهُ مُتَتَابِعًا كُلَّمَا خَتَمَهُ أَعَادَهُ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَهَذَا يُسَاعِدُ جِدّاً عَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ وَالتَّدَبُّرِ لِمَا يَقْرَأُ.

ولو شاء الله لجعل القرآن في عشر صفحات أو عشرين ، لكن اقتضت حكمته أن يكون بهذا المقدار وما فيه من التنويع في البيان والعرض من أجل تجديد النشاط وشحذ الهمم في القراءة والإنجاز ؟؟؟؟ وإظهار التنافس في قراءته وحفظه واستنباط حكمه وأحكامه .

وَمِنْ ذَلِكَ تَغْيِيرُ تَرْتِيبِ أَذْكَارِ الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ، يُنَوِّعُ فِي تَرْتِيبِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ، وَكَذَلِكَ أَذْكَارُ بَعْدِ الصَّلَاةِ، يُغَيِّرُ التَّرْتِيبَ بَيْنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ؛ لِئَلَّا يَعْتَادَ الْقَلْبُ عَلَيْهَا فَيَسْهُوَ عَنِ الْمَقْصُودِ.

رُبَّمَا يَجِدُ الْبَعْضُ صُعُوبَةً فِي ذَلِكَ لَكِنْ لِيَعْلَمْ أَنَّ هَذَا خَيْرٌ لَهُ، بَدَلَ أَنْ يُضَيِّعَ الْوَقْتَ فِي سَهْوٍ، يَظُنُّ أَنَّهُ يَذْكُرُ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قَلْبُهُ غَافِلٌ عَمَّا يَتَكَلَّمُ بِهِ لِسَانُهُ.

فَمِثْلُ هَذَا التَّجْدِيدِ وَالتَّنْوِيعِ وَالتَّغْيِيرِ فِي الْكَلِمَاتِ وَتَغْيِيرِ تَرْتِيبِهَا يُسَاعِدُ جِدّاً عَلَى حُضُورِ الْقَلْبِ، وَأَنْ يَعْلَمَ مَا يَقُولُ فَيَنْتَفِعُ بِذِكْرِهِ لِلَّهِ غَايَةَ الِانْتِفَاعِ.

المفتاح (٩): التكرار

فِي الرُّكُوعِ وَفِي السُّجُودِ وَالْجُلُوسِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، وَفِي الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ، وَغَيْرِهَا مِنْ مَوَاضِعِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى شُرِعَ التَّكْرَارُ لِأَذْكَارٍ مُعَيَّنَةٍ.

وَعِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ يُسَنُّ تَكْرَارُ بَعْضِ الْآيَاتِ أَوِ الْكَلِمَاتِ لِمَزِيدِ تَدَبُّرِهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا، وَإِذَا فُتِحَ لِلْعَبْدِ عِنْدَ آيَةٍ أَوْ ذِكْرٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يُطِيلَ التَّكْرَارَ وَيَغْتَنِمَ هَذَا الْفَتْحَ.

وَلْنعْلَمْ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَذْكَارِ وَرَدَ تَكْرَارُهَا عَدَداً مِنَ الْمَرَّاتِ: ثَلَاثـاً، عَشْراً، مِئَةً، وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّكْرَارِ تَثْبِيتُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي الْقَلْبِ، وَفَتْحُ الْمَجَالِ لِلتَّعَمُّقِ فِي فِقْهِ مَعْنَاهَا.

وَالنَّفْسُ تَسْأَمُ مِنَ التَّكْرَارِ وَتُطَالِبُ بِالتَّجْدِيدِ وَالتَّغْيِيرِ، وَهَذَا أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى يَقَظَةٍ وَانْتِبَاهٍ، فَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَكُونُ الْقَلْبُ غَيْرَ مُبْصِرٍ وَغَيْرَ مُدْرِكٍ لِلْمَعَانِي الَّتِي تَضَمَّنَهَا اللَّفْظُ الْمُرَادُ تَكْرَارُهُ.

وَبِالتَّكْرَارِ الْوَاعِي يُبْصِرُ الْقَارِئُ مِنَ الْمَعَانِي مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ، وَيَتَذَكَّرُ أُمُوراً قَدْ نَسِيَهَا.

وَمِفْتَاحُ التَّكْرَارِ هُوَ الْأَسَاسُ لِمِفْتَاحِ الرَّبْطِ، وَكَذَلِكَ مِفْتَاحُ التَّكْرَارِ يَقْوَى وَيَزِيدُ كُلَّمَا قَوِيَ الرَّبْطُ وَكَثُرَ.

المفتاح (١٠): الربط

رُبَّمَا تُصَلِّي فَتَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ فَلَا تُفِيقُ إِلَّا فِي آخِرِهَا، وَرُبَّمَا تَقْرَؤُهَا مَرَّةً أُخْرَى فَيَتَكَرَّرُ النِّسْيَانُ وَالسَّهْوُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقِفَ وَتُفَكِّرَ فِي أَمْرِكَ، كَيْفَ تَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ بِلِسَانِكَ دُونَ قَلْبِكَ، هَلْ هَذِهِ قِرَاءَةٌ؟

لِرَبْطِ الْقَلْبِ بِاللِّسَانِ تَحْتَاجُ أَنْ تَشْغَلَ الْقَلْبَ بِكَلَامٍ مُرَادِفٍ لِلْقِرَاءَةِ يَمْنَعُ الْهَوَاجِسَ وَالْوَسَاوِسَ، فَلَا يَسْمَحُ لَهَا بِالدُّخُولِ، وَلَا يَجْعَلُ لَهَا مَكَانـاً، فَالرَّبْطُ يَكُونُ بِكَلِمَاتٍ تُقَوِّي حُضُورَ الْقَلْبِ وَشُهُودَهُ لِمَا يَقْرَأُ، وَتَزِيدُ الْمَعَانِيَ كَثْرَةً وَعُمْقـاً.

وَهَذَا نَمُوذَجٌ وَمِثَالٌ لِلرَّبْطِ:

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ تُكَرِّرُ الْآيَةَ وَأَنْتَ تَقُولُ بِقَلْبِكَ: أَشْهَدُ أَنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ لِلَّهِ، لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَيْضـاً: تَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ يُجِيبُكَ بِقَوْلِهِ: «**حَمِدَنِي عَبْدِي**».

﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ تُكَرِّرُ الْآيَةَ وَأَنْتَ تَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ مَلِكُ الْعَالَمِ كُلِّهِ، مَلِكُ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ، بِيَدِهِ كُلُّ أُمُورِ النَّاسِ، بِيَدِهِ الشَّفَاعَةُ وَالْوَاسِطَةُ، وَقَدْ وَرَدَتْ كَلِمَةُ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) فِي الْقُرْآنِ (٤٢) مَرَّةً، فَإِنْ كُنْتَ تَحْفَظُ هَذِهِ الْآيَاتِ فَتَذَكَّرْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِحْدَى الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تَقِفُ وَتَدْعُو فَتَقُولُ: يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَا فَارِجَ الْهَمِّ... إِلَخْ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ يُجِيبُكَ بِقَوْلِهِ: «**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**».

﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ تَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ يَقُولُ لَكَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، ثُمَّ كَرِّرِ الْآيَةَ وَأَنْتَ تَقُولُ بِقَلْبِكَ: فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، يَوْمٌ عَسِيرٌ، يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ، ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ**﴾، ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ**﴾... إِلَخْ. تَسْتَحْضِرُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَنْتَ تُكَرِّرُ: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ عَدَداً مِنَ الْمَرَّاتِ.

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ تُكَرِّرُ الْآيَةَ وَتَقُولُ بِقَلْبِكَ: أُعَاهِدُكَ يَا رِبِّ لَا أَعْبُدُ غَيْرَكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، النَّفْعُ وَالضُّرُّ بِيَدِكَ وَحْدَكَ لَا بِيَدِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ، لَا مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، وَلَا وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَائِكَ الصَّالِحِينَ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَكَ إِلَّا بِإِذْنِكَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ.

﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ تُكَرِّرِ الْآيَةَ وَأَنْتَ تَقُولُ بِقَلْبِكَ: أَنَا ضَعِيفٌ، أَنَا فَقِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِي إِلَّا بِكَ، يَا رَبِّ أَعْتَرِفُ بِعَجْزِي وَفَقْرِي وَقِلَّةِ حِيلَتِي، وَأَنَّ مَا بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَهُ، كُلُّنَا ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتَهُ، يَا رَبِّ، إِنَّا نَسْتَهْدِيكَ فَاهْدِنَا يَا رِبِّ، رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُجِيبُكَ بِقَوْلِهِ: «**هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»، إِنَّهُ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ قَدْ فُتِحَ لَكَ الْبَابُ فَاطْلُبْ مَا تُرِيدُ، وَأَيُّ مَطْلَبٍ وَسُؤَالٍ أَعْظَمُ مِنْ سُؤَالِ الْهِدَايَةِ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ تُكَرِّرُهَا وَتَتَذَكَّرُ صُورَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ تَرْجُو اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَتَتَذَكَّرُ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ فَتَقُولُ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ**

قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»، ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾.

﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ تَتَذَكَّرُ أَنَّ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الَّذِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَيُحِبُّهُمْ، وَتَتَذَكَّرُ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَتَدْعُو اللهَ تَعَالَى أَنْ يُنْعِمَ عَلَيْكَ كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَرْزُقَكَ عِلْمَهُمْ وَعَمَلَهُمْ، وَأَنْ يُلْحِقَكَ بِهِمْ.

﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ تَقِفُ وَتَدْعُو اللهَ فَتَقُولُ: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ**»، يَا رَبِّ يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، يَا رَبِّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ، يَا مَنْ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، أَعُوذُ بِرَحْمَتِكَ مِنْ غَضَبِكَ.

﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ تَقُولُ: يَا رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجَهْلِ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِمَّنْ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي مِنَ الضَّالِّينَ الْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِكَ.

مِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ تَأْخُذُ وَقْتاً طَوِيلاً لَكِنَّهَا تَكُونُ بِقَلْبٍ، وَتَزِيدُ قُوَّةَ الْقَلْبِ، وَتُنَشِّطُ الْقَلْبَ وَتُنْعِشُهُ لِقِرَاءَةِ مَا بَعْدَهَا، أَمَّا حِينَ تَقْرَأُ الْفَاتِحَةَ سَرْداً فَالْمُلَاحَظُ أَنَّ اللِّسَانَ فِي جِهَةٍ وَالْقَلْبُ فِي جِهَةٍ أُخْرَى، اللِّسَانُ يَقْرَأُ أَلْفَاظَ الْفَاتِحَةِ، بَيْنَمَا الْقَلْبُ يُفَكِّرُ بَعِيداً كُلَّ الْبُعْدِ عَمَّا يَقْرَأُ، يُفَكِّرُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ بَعِيداً عَمَّا يَقْرَؤُهُ اللِّسَانُ.

وَبِالْمِثْلِ يُمْكِنُ تَطْبِيقُ الرَّبْطِ عَلَى كُلِّ كَلِمَاتِ الصَّلَاةِ، وَعَلَى الْأَذْكَارِ الْمُقَيَّدَةِ وَالْمُطْلَقَةِ خَارِجَ الصَّلَاةِ، وَعِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ.

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُ لِحُصُولِ الْإِنْصَاتِ تَحْتَاجُ إِلَى كَلَامَيْنِ؛ حَتَّى يَحْصُلَ رَبْطُ الْقَلْبِ بِاللِّسَانِ، أَمَّا عِنْدَ وُجُودِ كَلَامٍ وَاحِدٍ فَسُرْعَانَ مَا يَنْشَغِلُ الْقَلْبُ بِكَلَامٍ آخَرَ غَيْرِ مَا يَقْرَؤُهُ اللِّسَانُ، وَهَذَا أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَجْرِيبٍ وَتَطْبِيقٍ حَتَّى يَتِمَّ إِدْرَاكُهُ وَفَهْمُهُ.

الرَّبْطُ مِفْتَاحٌ عَجِيبٌ – بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى – يُحَقِّقُ اسْتِثْمَارَ ثَوَانِي الْعُمُرِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى

بَدَلَ أَنْ تَضِيعَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، تَظُنُّ أَنَّكَ تَقْرَأُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّكَ لَا تَقْرَأُ، تَظُنُّ أَنَّكَ تُسَبِّحُ وَتَذْكُرُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْقَلْبَ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُ.

المفتاح (١١): التباكي

مِمَّا يُحَقِّقُ حُضُورَ الْقَلْبِ وَخُشُوعَهُ الْجَهْرُ بِالذِّكْرِ، وَأَنْ يَكُونَ بِلَحْنِ التَّبَاكِي وَالتَّضَرُّعِ وَالِافْتِقَارِ، فَمِنَ الْمُلَاحَظِ وَالْمُجَرَّبِ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ أَثَرُ اللَّحْنِ فِي تَحْقِيقِ الْمُرَادِ، فَالتَّغَنِّي بِلَحْنٍ حَزِينٍ يُحَقِّقُ الْحُزْنَ، وَبِلَحْنِ الْفَرَحِ يُحَقِّقُ الطَّرَبَ وَالِانْشِرَاحَ، بَلِ الْبَعْضُ يَسْتَخْدِمُ اللَّحْنَ وَالصَّوْتَ فِي تَحْقِيقِ لَذَّةِ الشُّرْبِ وَالْأَكْلِ وَغَيْرِهَا مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ.

وَلِكُلِّ مَقَامٍ لَحْنُهُ الْمُنَاسِبُ؛ فَمَثَلاً فِي الْقِيَامِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لَهُ لَحْنٌ، وَالرُّكُوعُ وَمَا فِيهِ مِنَ التَّعْظِيمِ يَكُونُ بِلَحْنٍ، وَالسُّجُودُ وَمَا فِيهِ مِنَ التَّضَرُّعِ وَالتَّمَلُّقِ وَالْمَسْكَنَةِ لَهُ لَحْنٌ يُنَاسِبُهُ، وَالتَّبَاكِي يَعْنِي الْمُنَاشَدَةَ وَالْإِلْحَاحَ حِينَ السُّؤَالِ، وَيَعْنِي الْوَلَهَ وَالْحُبَّ وَالتَّعْظِيمَ حِينَ الثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ.

الْخُشُوعُ وَالْبُكَاءُ فَيْضٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى يُفِيضُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فَيُسْتَحَبُّ لِلْعَبْدِ افْتِعَالُهُ وَاصْطِنَاعُهُ حِينَ يَخْلُو الْعَبْدُ بِرَبِّهِ، وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ إِيقَاظِ الْقَلْبِ وَتَنْبِيهِهِ لِأَهَمِّيَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الذِّكْرِ وَالْمُنَاجَاةِ؛ فَقَدْ ذَكَرَ الْمُنْذِرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: جَلَسْنَا إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي الْحِجْرِ فَقَالَ: «ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُكَاءً فَتَبَاكَوْا، لَوْ تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لَصَلَّى أَحَدُكُمْ حَتَّى يَنْكَسِرَ ظَهْرُهُ، وَلَبَكَى حَتَّى يَنْقَطِعَ صَوْتُهُ» [صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ مَوْقُوفًا، وَقَالَ الْمُنْذِرِيُّ: رَوَاهُ الْحَاكِمُ مَرْفُوعًا، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا].

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ»، وَأَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «ابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا».

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**».

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْتَهِدُ فِي الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَيَبْكِي، نُقِلَ ذَلِكَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوَاقِفَ كَثِيرَةٍ.

وَيَنْبَغِي إِخْفَاءُ الْبُكَاءِ وَالْخُشُوعِ؛ لِأَنَّهُ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَإِنْ غَلَبَ عَلَيْهِ فَلَا حَرَجَ، فَقَدْ ظَهَرَ الْبُكَاءُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

المفتاح (١٢): التتابع

الْمَقْصُودُ بِالتَّتَابُعِ هُوَ عَدَمُ إِعْطَاءِ فُرْصَةٍ لِلْهَوَاجِسِ، بَلْ تَكُونُ الْقِرَاءَةُ مُتَوَالِيَةً مُتَّصِلَةً لَا يَفْصِلُهَا فَاصِلٌ، أَمَّا حِينَ تَكُونُ الْقِرَاءَةُ مُتَقَطِّعَةً يَفْصِلُهَا تَوَقُّفٌ وَشُرُودٌ، وَتَقْطَعُهَا الْهَوَاجِسُ فَمِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ مُبَعْثِرَةٌ لِلْجُهْدِ، وَلَا تُحَقِّقُ حَيَاةَ الْقَلْبِ وَزَكَاةَ النَّفْسِ.

فَالْمُرَادُ بِالتَّتَابُعِ هُوَ: السُّرْعَةُ مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ؛ بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ الْقَلْبُ حَاضِراً لِلْعَمَلِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ تُحَاوِلُ إِنْهَاءَهُ دُونَ حُصُولِ شَيْءٍ مِنَ الشُّرُودِ وَالسَّهْوِ، فَقَدْ صَلَّى عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً فَخَفَّفَهَا فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: «بَادَرْتُ بِهَا سَهْوَ الشَّيْطَانِ»، وَهَذَا يَكُونُ فِي حَالِ الْخَوْفِ مِنَ السَّهْوِ وَانْشِغَالِ الْقَلْبِ، أَمَّا حِينَ يَكُونُ الْقَلْبُ مُقْبِلاً فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَمَهَّلَ وَيُطِيلَ عِبَادَتَهُ.

المفتاح (١٣): المكان

مِنَ الْمُشَاهَدِ أَنَّ الْمَكَانَ لَهُ أَثَرٌ قَوِيٌّ عَلَى تَرْكِيزِ الْقَلْبِ وَحُضُورِهِ، فَالْمَسْجِدُ يَخْتَلِفُ عَنِ الْبَيْتِ، وَالْمَكَانُ الْخَالِي يَخْتَلِفُ عَنِ الْمَكَانِ الْمَشْغُولِ بِلَهْوِ النَّاسِ وَأَصْوَاتِهِمْ؛ فَيَحْرِصُ الذَّاكِرُ أَنْ يَجِدَ الْمَكَانَ الَّذِي يُحَقِّقُ حُضُورَ قَلْبِهِ وَشُهُودَهُ لِذِكْرِ رَبِّهِ، وَلَا يَعْنِي هَذَا تَرْكَ الذِّكْرِ حِينَ لَا يَتَوَفَّرُ مِثْلُ هَذَا الْمَكَانِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّ بَعْضَ الْأَمْكِنَةِ تَحْتَاجُ إِلَى جِهَادٍ لِتَحْصِيلِ الذِّكْرِ وَإِقْبَالِ الْقَلْبِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُجَاهِدَ، وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ عَلَى ذِكْرِهِ.

المفتاح (١٤): الوقت

بَعْضُ الْأَوْقَاتِ فُضِّلَتْ عَلَى بَعْضٍ؛ فَاللَّيْلُ أَفْضَلُ مِنَ النَّهَارِ، وَآخِرُ اللَّيْلِ أَفْضَلُ مِنْ أَوَّلِهِ، وَطَرَفَا النَّهَارِ أَفْضَلُ مِنْ وَسَطِهِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْأَمْرَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ؛ فَبَعْضُهُمْ يَكُونُ وَقْتٌ أَصْفَى عِنْدَهُ مِنْ وَقْتٍ، فَعَلَى مَنْ يُتَاجِرُ مَعَ اللهِ أَنْ يَتَحَيَّنَ الْأَوْقَاتَ الْفَاضِلَةَ، وَأَنْ يَغْتَنِمَ الْأَوْقَاتَ الَّتِي تَكُونُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ هَادِئَةً صَافِيَةً، وَكَذَلِكَ أَوْقَاتُ الْمَوَاسِمِ؛ مِثْلَ رَمَضَانَ، وَلَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَعَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَوْمِ عَرَفَةَ، وَيَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، تَكُونُ أَكْثَرَ بَرَكَةً مِنْ غَيْرِهَا.

المفتاح (١٥): الطهارة

أولاً: الوضوء

وَرَدَ عَدَدٌ مِنَ النُّصُوصِ تُبَيِّنُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ قُوَّةِ النَّفْسِ وَبَيْنَ الْوُضُوءِ، مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْعُقَدِ الَّذِي بَيَّنَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَنْ ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى وَتَوَضَّأَ وَصَلَّى فَإِنَّهُ يُصْبِحُ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، فَالْوُضُوءُ يَحْفَظُ وَيَحْمِي النَّفْسَ مِنَ الشَّيَاطِينِ، فَكَثِيرٌ مِنَ الْوَهَنِ وَالْخُمُولِ وَالْكَسَلِ سَبَبُهُ الشَّيْطَانُ، وَالْوُضُوءُ يَحْفَظُ النَّفْسَ مِنَ الْأَرْوَاحِ الْخَبِيثَةِ؛ فَيَحْصُلُ بِذَلِكَ النَّشَاطُ وَالْقُوَّةُ الْبَدَنِيَّةُ وَالنَّفْسِيَّةُ فَيَكُونُ هَذَا عَوْنًا عَلَى ذِكْرِ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نُلَاحِظُ ثِقَلَ الْوُضُوءِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وَمِنْ ذَلِكَ الِاسْتِنْثَارُ فِي الْوُضُوءِ؛ فَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَسْتَنْثِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَبِيتُ عَلَى خَيَاشِيمِهِ**».

وَالْوُضُوءُ مَعَ الذِّكْرِ سَبَبٌ لِإِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَتَحْقِيقِ الْمَطَالِبِ؛ فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَبِيتُ عَلَى ذِكْرٍ طَاهِراً فَيَتَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسْأَلُ اللهَ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**».

وَمَشْرُوعِيَّةُ الْوُضُوءِ عِنْدَ تَكْرَارِ الْجِمَاعِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوُضُوءَ يَزِيدُ مِنْ قُوَّةِ النَّفْسِ

وَالْبَدَنِ.

وَأَيْضاً وُضُوءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ يُرِيدُ النَّوْمَ بَعْدَ الْجِمَاعِ، دَلِيلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِهِ لِلْمُسْلِمِ حَتَّى وَإِنْ كَانَ جُنُباً؛ فَهُوَ يُعِينُهُ عَلَى ذِكْرِ اللهِ، وَيُقَوِّي قَلْبَهُ عَلَى الطَّاعَةِ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوُضُوءِ فَضِيلَةٌ إِلَّا حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ، وَحَدِيثُ بِلَالٍ لَكَانَ كَافِياً فِي تَحْفِيزِ الْمُؤْمِنِ عَلَى دَوَامِ الْوُضُوءِ وَصَلَاةِ رَكْعَتَيْنِ بَعْدَهُ.

ثانيا: السواك

إِنَّ الَّذِي يَتَأَمَّلُ فِي هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السِّوَاكِ يَرَى شِدَّةَ حِرْصِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، وَلَعَلَّ الْبَعْضَ يَتَسَاءَلُ: لِمَاذَا كُلُّ هَذَا الْحِرْصِ؟

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ: أَنَّ الْفَمَ وَاللِّسَانَ هُوَ مَوْضِعُ ذِكْرِ اللهِ، مَوْضِعُ قِرَاءَةِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى وَقِرَاءَةِ كَلَامِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ طَاهِراً نَظِيفاً، وَذَلِكَ تَعْظِيماً لِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى، وَتَكْرِيماً وَتَقْدِيساً لِاسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَ السِّوَاكُ مَرْضَاةً لِلرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ.

فَالسِّوَاكُ إِذَنْ مِنَ الْمَفَاتِيحِ الْمُهِمَّةِ لِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى، فَكُلَّمَا كَانَ الْمَحَلُّ نَظِيفاً طَاهِراً كُلَّمَا كَانَ الذِّكْرُ أَعْلَى وَأَكْمَلَ.

المفتاح (١٦): الصيام

لَا يَشُكُّ أَحَدٌ بِالْعَلَاقَةِ الْمَتِينَةِ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْبَدَنِ، وَالتَّأْثِيرِ الْمُتَبَادَلِ بَيْنَهُمَا، فَهُمَا لُحْمَةٌ وَاحِدَةٌ، مَا يُؤَثِّرُ فِي أَحَدِهِمَا يَسْرِي الْأَثَرُ لِلْآخَرِ، وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الصِّيَامَ يَجْعَلُ الدَّمَ نَظِيفاً نَقِيّاً، وَيُؤَدِّي إِلَى قِلَّةِ كَثَافَتِهِ وَحَجْمِهِ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى خِفَّةِ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَصَفَائِهَا وَاسْتِعْدَادِهَا لِتَقَبُّلِ الْأُمُورِ الْفِكْرِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ؛ فَالرُّوحُ -أَيِ النَّفْسُ- مُسْتَقَرُّهَا الْقَلْبُ، وَهِيَ سَارِيَةٌ فِي الْجِسْمِ كُلِّهِ، وَهِيَ مَحَلُّ الْإِدْرَاكِ وَالْوَعْيِ، وَهِيَ ذَاتُ الْإِنْسَانِ وَحَقِيقَتُهُ، وَأَمَّا الْجَسَدُ وَمِنْهُ الرَّأْسُ وَالدِّمَاغُ فَهُوَ حَامِلٌ لَهَا وَوَسِيطٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى قُوَّةِ النَّفْسِ، وَهَذَا أَمْرٌ مُقَرَّرٌ، وَسَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْهُ فِي

كِتَابِ «**مَفَاتِحِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ**».

المفتاح (١٧): مراعاة حاجات البدن

وَمِنْ ذَلِكَ النَّهْيُ عَنِ الصَّلَاةِ حَاقِنًا أَوْ حَاقِبًا، أَوْ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ يَشْتَهِيهِ، أَوْ يُغَالِبُهُ النَّوْمُ، وَيُقَاسُ عَلَيْهَا مَا كَانَ فِي مَعْنَاهَا؛ مِثْلَ انْتِظَارِ مُكَالَمَةٍ أَوِ انْتِظَارِ قُدُومِ شَخْصٍ، أَوْ وُجُودِهِ فِي مَكَانٍ فِيهِ تَشْوِيشٌ، وَمِنْ ذَلِكَ النَّهْيُ عَنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ حَالَ النُّعَاسِ وَالْإِرْهَاقِ، وَالْأَمْرُ بِالنَّوْمِ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ التَّعَبُ.

وَطَلَبُ التَّخَلُّصِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ لِتَحْصِيلِ الْكَمَالِ فِي الْقِرَاءَةِ، وَلَا يَمْنَعُ حُصُولَهَا، بَلْ قَدْ تَقْرَأُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، مَعَ الِانْتِبَاهِ أَنَّ دَرَجَةَ التَّرْكِيزِ نَاقِصَةٌ بِسَبَبِ انْشِغَالِ الْقَلْبِ بِأَمْرٍ آخَرَ.

وَلَا يُفْهَمُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ تَعْطِيلُ الْقِرَاءَةِ أَوْ تَضْيِيقُ أَوْقَاتِهَا الْمُنَاسِبَةِ لَهَا، وَإِنَّمَا يَعْنِي الْحَثَّ عَلَى إِزَالَةِ هَذِهِ الْعَوَارِضِ قَدْرَ الِاسْتِطَاعَةِ وَتَهْيِئَةِ النَّفْسِ وَالْقَلْبِ لِلْقِرَاءَةِ.

ملحق: فوائد ذكر الله

فَوَائِدُ دَوَامِ ذِكْرِ اللهِ شَامِلٌ لِجَمِيعِ أُمُورِ الْحَيَاةِ، ذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ بِإِحْيَاءِ الْقَلْبِ وَتَقْوِيَتِهِ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَصْلُحُ جَمِيعُ أُمُورِ الْعَبْدِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».

وَهِيَ فَوَائِدُ وَلَيْسَتْ مَقَاصِدَ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هِيَ نِيَّةَ الْعَمَلِ أَوِ الْبَاعِثَ إِلَيْهِ، بَلْ هَذِهِ الْفَوَائِدُ تَحْصُلُ دُونَ قَصْدٍ أَوِ اهْتِمَامٍ بِهَا.

بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ النِّيَّةُ خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا.

وَهَذِهِ نَمَاذِجُ لِفَوَائِدِ دَوَامِ ذِكْرِ اللهِ.

الفائدة (١): قوة الإرادة والعزيمة

سَبَبُ ضَعْفِ الْإِرَادَةِ وَضَعْفِ السُّلُوكِ هُوَ ضَعْفُ الْقَلْبِ؛ أَيْ: لَا يُوجَدُ قَلْبٌ يَعْقِلُ، لَيْسَ هُنَاكَ لُبٌّ يَتَذَكَّرُ.

وَسَبَبُ ضَعْفِ الْقَلْبِ أَنَّ قُدْرَتَهُ عَلَى التَّرْكِيزِ وَالِانْتِبَاهِ مُتَدَنِّيَةٌ جِدًّا، أَوْ أَنَّ مَخْزُونَهُ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْحَيَّةِ اللَّازِمَةِ لِإِدَارَةِ الْحَيَاةِ قَلِيلٌ جِدًّا؛ أَيْ: لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ؛ أَيْ: لَيْسَ فِيهِ عِلْمٌ، لَيْسَ فِيهِ حِفْظٌ تَرْبَوِيٌّ، حِفْظٌ عَمِيقٌ رَاسِخٌ ثَابِتٌ.

الْقَلْبُ الَّذِي لَمْ يَتِمَّ تَخْزِينُ كَلِمَاتٍ فِيهِ بِقُوَّةٍ وَكَثْرَةٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ ضَعِيفًا سَرِيعَ النِّسْيَانِ كَثِيرَ الشُّرُودِ، لَا يُمْكِنُ جَمْعُهُ وَالتَّحَكُّمُ فِيهِ، تَجِدُهُ يَتَشَتَّتُ وَيَتَفَرَّقُ لِأَدْنَى عَارِضٍ، فَضْلاً عَنِ الْعَوَارِضِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي يَتَعَرَّضُ لِلْإِصَابَةِ بِهَا؛ وَبِالتَّالِي يَكُونُ صَاحِبُهُ ضَعِيفَ الْإِرَادَةِ، ضَعِيفَ النَّفْسِ، ضَعِيفَ الشَّخْصِيَّةِ.

تَسْمَعُ مِنْ بَعْضِ الْمُسْتَشَارِينَ وَالْأَطِبَّاءِ النَّفْسِيِّينَ مَنْ يَقُولُ لِلشَّخْصِ: قُلْ لِنَفْسِكَ كَذَا، فَكِّرْ بِكَذَا، لَا تُفَكِّرْ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَبْعِدْ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ ذِهْنِكَ.

نَعَمْ هَذِهِ نَصَائِحُ جَيِّدَةٌ، لَكِنْ هَذِهِ هِيَ الْمُشْكِلَةُ الَّتِي جَاءَ لِعِلَاجِهَا، وَهِيَ ضَعْفُ الْإِرَادَةِ، وَفَقْدُ السَّيْطَرَةِ عَلَى التَّفْكِيرِ وَالْخَوَاطِرِ، وَتَسَلُّطِ أَفْكَارٍ مُزْعِجَةٍ وَمُقْلِقَةٍ، أَوْ فَاسِدَةٍ وَمُنْحَرِفَةٍ.

إِنَّ التَّرْبِيَةَ عَلَى دَوَامِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى يُرَبِّي فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَهَلٍ وَمُنْذُ الطُّفُولَةِ مَلَكَةَ التَّحَكُّمِ بِالْقَلْبِ، وَبِالْخَوَاطِرِ، وَبِحَدِيثِ الْقَلْبِ، وَإِدَارَتَهُ لِلْجِهَةِ الَّتِي يُرِيدُهَا بَدَلَ أَنْ يُدِيرَهُ وَيَتَحَكَّمَ فِيهِ غَيْرُهُ، **فَحَيَاةُ الْقَلْبِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِيَعِيشَ الْإِنْسَانُ سَوِيًّا قَوِيًّا.**

الْكَثِيرُ مِنَ الشَّبَابِ يَبْحَثُ وَيُفَتِّشُ هُنَا وَهُنَاكَ يُرِيدُ الْحُصُولَ عَلَى حُلُولٍ لِكَثِيرٍ مِنْ

مُشْكِلَاتِهِ، حَيْثُ يُحِسُّ بِأَنَّهُ ضَعِيفُ الْإِرَادَةِ، وَأَنَّ هَذَا الضَّعْفَ يُوقِعُهُ فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْإِحْرَاجَاتِ وَيَحْرِمُهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَكَاسِبِ الَّتِي يَطْمَحُ إِلَى تَحْقِيقِهَا فِي الْحَيَاةِ، لَكِنَّ الْكَثِيرَ لَا يُوَفَّقُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْحَلِّ الصَّحِيحِ لِهَذِهِ الْمُشْكِلَةِ، بَلْ يُبْتَلَى بِحُلُولٍ سَطْحِيَّةٍ هَشَّةٍ لَا تُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا وَلَا تُصْلِحُ مِنْ حَالِهِ أَمْراً، بَيْنَمَا الْحَلُّ الْحَقِيقِيُّ هُوَ بِاخْتِصَارٍ فِي التَّرْبِيَةِ عَلَى دَوَامِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى.

مِنَ الْمَعْلُومِ وَالْمُقَرَّرِ أَنَّ مَبْدَأَ السُّلُوكِ هُوَ الْقَلْبُ أَيِ الْخَوَاطِرُ وَالْأَفْكَارُ، ثُمَّ يَنْتَقِلُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْجَوَارِحِ، فَضَبْطُ الْخَوَاطِرِ هُوَ الطَّرِيقُ إِلَى ضَبْطِ السُّلُوكِ، وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ يُدْرِكُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْجَوَابِ الْكَافِي: «فَمَنْ رَاعَى خَطَرَاتِهِ مَلَكَ زِمَامَ نَفْسِهِ، وَقَهَرَ هَوَاهُ، وَمَنْ غَلَبَتْهُ خَطَرَاتُهُ فَهَوَاهُ وَنَفْسُهُ لَهُ أَغْلَبُ، وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالْخَطَرَاتِ قَادَتْهُ قَهْراً إِلَى الْهَلَكَاتِ » اهـ.

مَنْ عَوَّدَ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ دَوَامَ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى أَمْكَنَهُ التَّحَكُّمُ بِجَوَارِحِهِ: لِسَانِهِ، عَيْنِهِ، يَدِهِ، رِجْلِهِ، وَأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ مَشَاعِرُ قَلْبِهِ الَّتِي تَنْتُجُ بِسَبَبِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَدُورُ فِيهِ وَلَا يَفْصِلُ بَيْنَ الْكَلِمَاتِ وَالْمَشَاعِرِ، ثُمَّ السُّلُوكِ، إِلَّا فَاصِلٌ رَقِيقٌ جِدّاً؛ فَمَثَلاً: الْغَضَبُ يَسْبِقُهُ كَلِمَاتٌ تُلْقَى فِي الْقَلْبِ، ثُمَّ تَنْتَقِلُ لِلتَّنْفِيذِ بِوَاسِطَةِ اللِّسَانِ نُطْقًا، أَوِ الْيَدِ ضَرْبًا، أَوِ الرِّجْلِ تَحَرُّكًا وَانْتِقَالاً، وَكَذَلِكَ الْيَأْسُ يَسْبِقُهُ كَلِمَاتٌ تَدُورُ فِي الْقَلْبِ، ثُمَّ يَحْصُلُ الشُّعُورُ بِالْيَأْسِ، ثُمَّ تَتْبَعُهُ الْجَوَارِحُ بِالِاسْتِسْلَامِ وَالْقُعُودِ، وَكَذَا الْحِلْمُ وَضَبْطُ النَّفْسِ، أَوِ السَّمَاحَةُ وَالْكَرَمُ، أَوِ الْحَمَاسُ وَالنَّشَاطُ؛ كُلُّ ذَلِكَ نَتِيجَةَ كَلِمَاتٍ تَدُورُ فِي الْقَلْبِ يَتْبَعُهَا مَشَاعِرُ، ثُمَّ يَعْقُبُ الْمَشَاعِرَ قَرَارَاتٌ تَنْفِيذِيَّةٌ تَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ.

يَشْتَكِي الْكَثِيرُ -مِنَ الشَّبَابِ خَاصَّةً- مِنْ ضَعْفِ الْإِرَادَةِ، وَهُوَ جَوَابُهُمُ الْأَوَّلُ حِينَ يُنَاصَحُونَ وَيُطْلَبُ مِنْهُمْ تَرْكُ الْعَادَاتِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تُسَبِّبُ لَهُمُ الشَّقَاءَ وَالْقَلَقَ، وَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَّةَ تُبَاعُ فَيَشْتَرُونَهَا بِأَغْلَى الْأَثْمَانِ، فَنَقُولُ لَهُمْ: إِنَّهَا تُبَاعُ بِالْمَجَّانِ؛ أَيْ أَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ بَذْلِ الْجُهْدِ دُونَ بَذْلِ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، فَهِيَ فِي مُتَنَاوَلِ الْجَمِيعِ، الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ،

وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَالْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ وُسَطَاءَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُحَقِّقُ لَهُمُ الرَّفَاهِيَةَ وَالْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، بَلْ جَعَلَهُ سَهْلاً مَيْسُوراً، وَلَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ لِجَهْلِهِ وَقِلَّةِ عِلْمِهِ يَتَخَبَّطُ فِي هَذَا الطَّرِيقِ وَيَحْرِمُ نَفْسَهُ الْوُصُولَ إِلَى الْكَنْزِ الَّذِي يُحَقِّقُ لَهُ السَّعَادَةَ مَدَى الْحَيَاةِ.

الفائدة (٢): تنمية الموارد البشرية

حِينَ يَتَرَبَّى الْمُوَظَّفُ عَلَى دَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ يُنْجِزُ وَيُبْدِعُ وَيُطَوِّرُ عَمَلَهُ وَيُصْبِحُ يُعَادِلُ ثَلَاثَةَ مُوَظَّفِينَ أَوْ أَكْثَرَ مِمَّنْ غَالِبُ وَقْتِهِ فِي سَهْوٍ وَهَوَاجِسَ، وَفِكْرُهُ فِي فَوْضَى.

حِينَ يَتَرَبَّى أَفْرَادُ أَيِّ مُجْتَمَعٍ عَلَى دَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمُجْتَمَعَ يَكُونُ مُنْتِجًا، جَادًّا مُبْدِعًا، وَيُصْبِحُ أَفْرَادُهُ فَاعِلِينَ مُنْتِجِينَ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ مُجْتَمَعًا قَوِيًّا لَهُ هَيْبَتُهُ وَاحْتِرَامُهُ بَدَلَ أَنْ يَكُونَ عُرْضَةً لِأَطْمَاعِ الطَّامِعِينَ، وَفِي أَيِّ لَحْظَةٍ يُصْبِحُ لُقْمَةً سَائِغَةً لِلْأَعْدَاءِ الْمُتَرَبِّصِينَ.

إِنَّ تَرْبِيَةَ الْمُجْتَمَعِ عَلَى دَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ حَظَّهُ الْأَوْفَرَ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجُهْدِ وَالْمَالِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ الْقُوَّةِ، إِنَّ الْقُوَّةَ الْمَعْنَوِيَّةَ النَّفْسِيَّةَ يَجِبُ أَنْ نَهْتَمَّ بِبِنَائِهَا قَبْلَ الِاهْتِمَامِ بِبِنَاءِ الْقُوَّةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالْإِدَارِيَّةِ، وَالصِّحِّيَّةِ، وَغَيْرِهَا؛ ذَلِكَ أَنَّهُ مَتَى وُجِدَ أَفْرَادٌ جَادُّونَ مُنْتِجُونَ فَإِنَّهُمْ تِلْقَائِيًّا يُحَقِّقُونَ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ وَبِاعْتِمَادٍ ذَاتِيٍّ دَاخِلِيٍّ غَيْرِ مُتَوَقِّفٍ عَلَى جِهَةٍ خَارِجِيَّةٍ تَتَحَكَّمُ فِيهِ وَتَسْتَعْمِلُهُ لِلضَّغْطِ عَلَى الْمُجْتَمَعِ لِتَحْقِيقِ مَآرِبِهَا وَمَقَاصِدِهَا وَالتَّدَخُّلِ فِي شُؤُونِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، فَضْلاً عَنْ مَوَاقِفِهَا الْخَارِجِيَّةِ.

الفائدة (٣): تحقيق الغنى والوقاية من الفقر

لَا شَكَّ أَنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ؛ فَقَدْ يَكُونُ ثَرِيًّا مَنْ يَمْلِكُ أَلْفًا، وَيَكُونُ فَقِيراً مَنْ يَمْلِكُ مِلْيَاراً.

ذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الْأَلْفِ تَكُونُ زَائِدَةً عَنْ حَاجَتِهِ وَرَغَبَاتِ نَفْسِهِ فَهُوَ غَنِيٌّ، وَصَاحِبُ

الْمِلْيَارِ لَا يُغَطِّي مِلْيَارُهُ رُبْعَ مُتَطَلَّبَاتِ وَشَهَوَاتِ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ فَقِيرٌ.

فَمَثَلاً مِمَّا يُنْهِكُ النَّاسَ مَالِيًّا التَّبَاهِي فِي الْمَرَاكِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ وَالتَّرْفِيَةِ وَالسَّفَرِ، فَإِذَا سَلِمَ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْعِلَلِ تَوَفَّرَ لَدَيْهِ مَالٌ كَثِيرٌ وَهُوَ مُرْتَاحُ الْبَالِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْغِنَى هُوَ غِنَى الْآخِرَةِ، هُوَ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ دَرَجَاتٍ فِي الْآخِرَةِ.

سَبَقَ الْقَوْلُ أَنَّ دَوَامَ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ يُحَقِّقُ قُوَّةَ الْإِرَادَةِ، وَيُحَقِّقُ الْعِلْمَ وَالْبَصِيرَةَ، وَهَذَا -بِلَا شَكٍّ- يُسْهِمُ جِدّاً فِي كَسْبِ الْمَالِ، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ قُوَّةُ الْإِرَادَةِ فِي إِدَارَتِهِ، وَعَدَمُ صَرْفِهِ عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَمَلَذَّاتِهَا؛ بِحَيْثُ يَتِمُّ تَوْجِيهُ لَذَّاتِ النَّفْسِ إِلَى الْوُجْهَةِ الصَّحِيحَةِ.

الفائدة (٤): النوم المريح

النَّوْمُ هُوَ نَوْمُ الْقَلْبِ، نَوْمُ النَّفْسِ، نَوْمُ الرُّوحِ وَلَيْسَ نَوْمَ الْبَدَنِ، وَهَذَا يُؤَكِّدُ الصِّلَةَ الْقَوِيَّةَ بَيْنَ حَيَاةِ الْقَلْبِ وَبَيْنَ النَّوْمِ، وَيُبَيِّنُ الْعَلَاقَةَ بَيْنَ صِحَّةِ الْقَلْبِ وَالنَّفْسِ وَبَيْنَ النَّوْمِ الصَّحِيحِ وَتَحْقِيقِهِ لِصِحَّةِ الْجَسَدِ.

إِنَّ دَوَامَ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ عِلَاجٌ فَعَّالٌ وَأَكِيدٌ لِلْأَرَقِ النَّاشِئِ عَنِ الْوَسَاوِسِ الْمُقْلِقَةِ.

يَبْحَثُ النَّاسُ كَثِيراً عَنْ وَصَفَاتٍ تَجْلِبُ لَهُمُ النَّوْمَ، وَأَنْ يَكُونَ نَوْمُهُمْ مُرِيحًا يُعِيدُ لِلْجِسْمِ نَشَاطَهُ وَحَيَوِيَّتَهُ بَدَلَ أَنْ يَنْهَضَ الشَّخْصُ مِنْ نَوْمِهِ مُتْعَبًا مَكْدُوداً يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى نَوْمٍ آخَرَ.

إِنَّ دَوَامَ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ يُوجِدُ قُوَّةَ التَّحَكُّمِ بِالْقَلْبِ، وَهُوَ الْأَمْرُ اللَّازِمُ لِتَحْصِيلِ النَّوْمِ الْمُرِيحِ؛ وَذَلِكَ بِقَطْعِ الْوَسَاوِسِ الْمُزْعِجَةِ، تِلْكَ الْوَسَاوِسُ الَّتِي تَجْعَلُ النَّائِمَ لَيْسَ نَائِمًا، بَلْ هُوَ فِي سَعْيٍ وَرَكْضٍ وَصِرَاعٍ طُولَ نَوْمِهِ، وَأَيْضًا فَذِكْرُ اللهِ تَعَالَى عِلَاجٌ لِلْأَرَقِ وَتَأَخُّرِ النَّوْمِ.

تَحْقِيقُ هَذَا الْأَمْرِ لَا يُتَوَقَّعُ أَنْ يُوجَدَ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، أَوْ أَوَّلِ شَهْرٍ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ تَكْرَارِ

الْمُجَاهَدَةِ، وَهَذَا مِنْ ثَمَرَاتِ دَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ الْإِضَافِيَّةِ، أَمَّا ثَمَرَتُهُ الْأَسَاسِيَّةُ فَهِيَ تَحْقِيقُ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ خِلَالِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.

يَسْتَغْرِبُ الْبَعْضُ؛ فَقَدْ يَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ وَالْمُعَوِّذَاتِ قَبْلَ النَّوْمِ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ الْحِفْظُ مِنَ الشَّيْطَانِ كَمَا جَاءَ الْوَعْدُ بِذَلِكَ عَلَى لِسَانِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالسَّبَبُ أَنَّ مُعْظَمَ سَاعَاتِ يَوْمِهِ مَشْغُولَةٌ بِالْغَفْلَةِ وَالْهَوَاجِسِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ وَقْتُ النَّوْمِ فَإِذَا الْقَلْبُ ضَعِيفٌ، فَمَهْمَا قَرَأَ أَوْ ذَكَرَ فَإِنَّ الْقِرَاءَةَ لَا تَصِلُ إِلَى الْقَلْبِ، أَيْ إِلَى النَّفْسِ؛ فَلَمْ يَحْصُلْ حِفْظُ النَّفْسِ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْعَبْدُ مُدَاوِمًا لِذِكْرِ اللهِ فَبِعَوْنِ اللهِ تَصِلُ كَلِمَاتُ اللهِ التَّامَّاتُ إِلَى الْقَلْبِ، أَيْ إِلَى النَّفْسِ؛ فَيَحْصُلُ الْحِفْظُ وَالتَّحْصِينُ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ، هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَزِيدَنَا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا.

الفائدة (٥): صحة البدن والنشاط

إِنَّ مِنَ الْفَوَائِدِ الْمُهِمَّةِ لِدَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ أَنَّهُ يُحَقِّقُ قُوَّةَ الْجِسْمِ وَالنَّشَاطَ، دَلَّ عَلَى هَذَا وَصِيَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ وَزَوْجِهَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ أَوْصَاهُمَا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ عِنْدَ النَّوْمِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**».

وَاضِحٌ مِنْ مَفْهُومِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ أَنَّ الْمُوَاظَبَةَ عَلَى هَذَا الذِّكْرِ يُحَقِّقُ النَّشَاطَ وَالْقُوَّةَ الْبَدَنِيَّةَ؛ مِمَّا يَقْوَى بِهِ الْمَرْأَةُ أَوِ الرَّجُلُ عَلَى إِنْجَازِ مَهَامِّ حَيَاتِهِمَا وَاسْتِغْنَائِهِمَا عَنِ الْخَدَمِ.

وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى، وَتَفْسِيرُ هَذَا التَّأْثِيرِ وَهَذِهِ الْعَلَاقَةِ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ يُدْرِكُهُ كُلُّ ذِي بَصِيرَةٍ، ذَلِكَ أَنَّ دَوَامَ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ يُحَقِّقُ الْقُوَّةَ النَّفْسِيَّةَ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقُوَّةَ الْبَدَنِيَّةَ فِي مُعْظَمِ الْأَحْوَالِ تَتَوَقَّفُ عَلَى الْقُوَّةِ النَّفْسِيَّةِ، فَكُلَّمَا قَوِيَتِ النَّفْسُ قَوِيَ الْبَدَنُ، وَكُلَّمَا وَهِنَتِ النَّفْسُ أُصِيبَ الْجِسْمُ بِالْوَهَنِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ مِنْ عِلَّةٍ.

وَوَاقِعُنَا الْيَوْمَ يَشْهَدُ لِصِحَّةِ مَا ذَكَرْتُ مِنْ خِلَالِ مُقَارَنَةٍ سَرِيعَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَاقِعِنَا قَبْلَ عَشَرَاتِ السَّنَوَاتِ؛ حَيْثُ كَانَتِ الْإِنْتَاجِيَّةُ أَعْلَى بِكَثِيرٍ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ الرَّجُلُ أَوِ الْمَرْأَةُ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النِّسَاءِ الْيَوْمَ إِذَا نَظَرَتْ إِلَى الْوَرَاءِ تَتَعَجَّبُ كَيْفَ كَانَتْ تُنْجِزُ كُلَّ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ الْيَوْمَ إِنْجَازَهَا إِلَّا بِمُسَاعَدَةِ خَادِمَةٍ أَوْ خَادِمَتَيْنِ، وَفِي مَجَالِ الْإِدَارَةِ يَتَعَجَّبُ بَعْضُ الْإِدَارِيِّينَ كَيْفَ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَهَامِّ وَالْمَسْؤُولِيَّاتِ يُنْجِزُهَا شَخْصٌ وَاحِدٌ، بَيْنَمَا الْيَوْمَ تَحْتَاجُ إِلَى إِدَارَةٍ أَوْ فَرِيقِ عَمَلٍ.

إِنَّ سِرَّ تَأْثِيرِ دَوَامِ الْجَهْرِ بِذِكْرِ اللهِ فِي تَحْقِيقِ الْقُوَّةِ وَالْإِنْجَازِ مَا زَالَ مُتَاحًا لِمَنْ أَرَادَ أَوْ أَرَادَتِ الِاسْتِفَادَةَ مِنْهُ فِي تَوْفِيرِ الْوَقْتِ وَالْمَالِ وَالْجُهْدِ، وَمُضَاعَفَةِ الْإِنْتَاجِيَّةِ، وَأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ وَقَبْلَهُ تَحْقِيقُ الصِّحَّةِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَأُذَكِّرُ أَنَّ هَذَا مِنَ الْفَوَائِدِ وَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ.

وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.